جامعة دمشق

كلية الحقوق – قسم القانون الدولي

ماجستير القانون الدولي

نرحب بالجميع في مقرر القانون الدولي الإنساني للعام الدراسي ٢٠١٩ / ٢٠٢٠ في ماجستير القانون الدولي. متمنين لكم تحقيق الفائدة المرجوة والوصول إلى النجاح الذي يعتمد كلّياً على ما ستبذلونه من جهد ومتابعة واهتمام.

مفردات المقرر:

بعد تخصيص أوّل محاضرتين كمدخل للقانون الدولي الإنساني للتعريف به والتذكير بأساسيات الحماية والحرب، سيتم تخصيص الجلسات اللاحقة لمناقشة قضايا متعمقة في القانون الدولي الإنساني، وسيتم الاعتماد بصورة أساسية على بعض الدراسات القانونية المتخصصة ذات الصلة والمنشورة في المجلة الدولية للصليب الأحمر الدولي، فضلاً عن بعض التقارير الدولية ذات الصلة. وبحيث تشمل هذه العناوين:

- التطور التاريخي للتقسيم القانوني بين النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية.
- نطاق الحماية الذي توفره المادة ٣ المشتركة.
- المساواة بين الأطراف المتحاربة في النزاعات المسلحة غير الدولية.
- الوضع القانوني للمقاتلين غير الشرعيين.
- انطباق القانون الدولي الإنساني على الجماعات النظامية المسلحة.
- مفهوم المشاركة المباشرة للمدنيين في الأعمال العدائية.
- موقف القانون الدولي الإنساني من استخدام المرتزقة في الحروب.
- الوضع القانوني لدولة الاحتلال الحربي المحتلة ومسئوليتها في الأراضي المحتلة وفقاً لقواعد القانون الدولي الإنساني.

المراجع وآلية العمل:

- يعتمد المقرر على التفاعل، والتحضير المسبق، والنقاش من قبل الجميع، فضلاً عن تكليفكم بإنجاز أوراق بحثية.
- سيتم ارشادكم في كل جلسة على مراجع ذات صلة بالقضايا التي سيتم مناقشتها.
- سيتم الاتفاق في كل جلسة على محاور وآلية عمل الجلسة اللاحقة.

آلية العمل في ظل إيقاف الدوام:

- بناء على التطورات المستجدة ومقتضيات إيقاف الدوام حالياً، نرجو بدايةً لكم ولعائلاتكم كل السلامة والتوفيق، وبغية استغلال الوقت المتاح بشكل مناسب وتقليل تبعات إيقاف الدوام سيتم دورياً تزويدكم بالمادة العلمية الخاصة بكل محاضرة ليتم قراءتها من قبلكم وتحضيرها بشكل جيد وترتيب التساؤلات المرتبطة بها لنناقشها عند إعادة الدوام وفق ما سيتضح مستقبلاً.

جامعة دمشق

كلية الحقوق – قسم القانون الدولي

ماجستير القانون الدولي

نرحب بالجميع في مقرر القانون الدولي الإنســـاني للعام الدراســـي ٢٠١٩ / ٢٠٢٠ في ماجستير القانون الدولي. متمنين لكم تحقيق الفائدة المرجوة والوصول إلى النجاح الذي يعتمد كلّياً على ما ستبذلونه من جهد ومتابعة واهتمام.

المحاضرة الأولى:

سيكون لدينا في هذه اللقاء الأوّل كتاب **هنري دونان – تذكر سولفرينو**

في هذا الكتاب يروي لنا "هنري دونان"، المعروف بأنه أبو الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، بعضـــا من ذكرياته المؤثرة التي ظلت تلاحقه طوال ثلاث ســـنوات بعد معركة "ســـولفرينو" حينما رمت به الأقدار إليها ليشهد قسوة الحرب وبشاعتها.

المطلوب كمدخل لدراستنا في القانون الدولي الإنساني قراءة هذا الكتاب ومحاولة استخلاص بعض الأفكار التي تحدث عنها هنري دونان نتيجة مشاهداته في تلك الحرب وكيف تم الاستجابة لها وبحيث تحولت الأن إلى قواعد قانونية تُشكّل أساس للقانون الدولي الإنساني.

أي مطلوب من الجميع اختيار ثلاث مقتطفات من هذا الكتاب تعكس معاناة رصـــدها هنري دونان في تلك الحرب، والإشارة كيف تمت الاستجابة لها بموجب قواعد القانون الدولي الإنساني حالياً.

سيكون هذا مدخل للقضايا التي سنتعرض لها لاحقاً.

كل الأمنيات لكم ولعائلاتكم بالصحة والسلامة

د. إبراهيم درّاجي ٢٩-٣-٢٠٢٠

هنري دونان

تذكار سولفرينو

اللجنة الدولية للصليب الأحمر

تذکار سولفرینو

ICRC

ج. هنري دونان ١٨٢٨ ـ ١٩١٠

هنري دونان

تذكار سولفرينو

تعريب
الدكتور سامي جرجس

الناشـــر
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

الطبعةالحادية عشر
2010

المركز الإقليمى الإعلامى
اللجنة الدولية للصليب الأحمر
القـاهرة

ISBN 2-88145-057-1
© حقوق الطبع محفوظة للجنة الدولية للصليب الأحمر

المركز الإقليمي الإعلامي - اللجنة الدولية للصليب الأحمر

مقدمة بقلم المعرّب

موقعة سولفرينو «٢٤ يونيو/حزيران ١٨٥٩» هي إحدى حلقات كفاح إيطاليا الممزقة إلى دويلات، المحتلة بالنمساويين، في سبيل الاستقلال والوحدة. وقد قام نابليون الثالث امبراطور فرنسا بإنفاذ حملة قادها بنفسه لمساعدة إيطاليا على التخلص من الاحتلال النمساوي. وبدأت الحملة بتحرير الجزء الشمالي من إيطاليا (لومبارديا)، وتحالف نابليون أثناءها مع جيش سردينيا بقيادة ملكها فكتور إمانويل الذي أصبح فيما بعد أول ملك لإيطاليا المتحدة، بينما كان يقود القوات النمساوية امبراطور النمسا فرنسوا جوزيف بنفسه.

عَبَر الألْبَ مائتا ألف جندي فرنسي. وهُزم النمساويون في ماجنتا في ٤ يونيو/حزيران ١٨٥٩ وتقهقروا إلى المنطقة الواقعة بين نهري أديجي ومينشيو، حيث جرت معركة سولفرينو التي حقق فيها نابليون انتصاراً باهظ الثمن، ثم عقد مع النمسا في فيلا فرنكا هدنة فُصلت بموجبها لومبارديا عن النمسا، وضُمت إلى سردينيا (بيمونت) لتصبح نواة لإيطاليا المتحررة المتحدة. وفقد الحلفاء أكثر من ١٧٠ ٠٠٠ من الضباط والجنود بين قتيل وجريح. وأصبحت المقابر الضخمة الثلاث التي تضم رفات عشرات الآلاف من ضحايا تلك المعركة الشهيرة من معالم قرية سولفرينو.

لم يكن هنري دونان ـ وهو مواطن سويسري ـ أحد المقاتلين في تلك المعركة، ولم يكن من بين المرافقين لأحد الجيوش المتصارعة، ولا من أهالي المنطقة، لكنه كان ضيفاً غريباً رمت به الأقدار إلى ذلك المكان الذي تجلت فيه كل قسوة الحرب وبشاعتها. وحاول دونان أن يفعل شيئاً، وأن يكون له دور ما. وهو في هذا الكتاب

يروي لنا بعضاً من ذكرياته التي ظلت تلاحقه طوال ثلاث سنوات بعد المعركة، وقد أراد به أن يشركنا معه في الإحساس بالصدمة التي هزته، وأن ينقلنا إلى ميادين القتال المتخمة بالدماء. وقد نشر الكتاب في عام ١٨٦٢ ووجه فيه دونان، كما سنرى، نداء إلى كل ذوي النوايا الطيبة يطالب فيه بالعمل على إنشاء جمعيات طوعية لإغاثة ضحايا الحرب، وبوضع اتفاقية دولية لتقنين قيامها وتنظيم عملها. وقد حقق الكتاب، لحسن الحظ، هدفه بسرعة. وبفضل جهود دونان مع نخبة من الرجال المخلصين أمكن إعطاء إشارة الانطلاق لتكوين الجمعيات الرحيمة التي تنتشر الآن في جميع بقاع الأرض تعمل في الحرب والسلام لتخفيف معاناة البشر ومد يد العون إليهم في لحظات الشدة والخطر.

وإني إذ أقدم هذا الكتاب إلى قراء العربية أرجو أن أكون قد وفقت إلى حد ما في توصيل تلك المعاني والأفكار العظيمة التي حاول دونان بكتابه هذا أن يعلنها لنا.

والله ولي التوفيق"

هنري دونان ١٨٢٨-١٩١٠

جون هنري دونان، المعروف بأنه أبو الصليب الأحمر والهلال الأحمر، ولد في ٨ مايو/أيار ١٨٢٨ في جنيف بسويسرا. كان والده رجل أعمال ناجحاً ومواطناً ذا مكانة بارزة، وثروة واسعة. وكانت أمه سيدة رقيقة وتقية. وهي التي كانت مسؤولة أكثر من أي شخص آخر عن تربية ابنها البكر في سنوات عمره الأولى. وكان لتأثيرها دور كبير في تشكيل طباعه.

وعندما شب دونان كان يحظى بكل المزايا التي أسبغها عليه وضع أسرته الاجتماعي والاقتصادي. وفي الوقت نفسه، اختبر دونان الآداب المعتادة لأبناء المواطنين السويسريين المسؤولين. وأثر في نموه وتطوره كذلك جو جنيف الكالفينية. وتكونت لديه مبكراً قناعات دينية عميقة ومبادئ أخلاقية عالية.

وفي السنوات الأولى من نضوجه وجد منفذاً لطاقاته بانضمامه إلى مختلف الحركات أو مناصرة بعض القضايا وبالاشتراك في الأنشطة الخيرية والدينية. وأصبح عضواً في منظمة بجنيف عرفت باسم جمعية الصدقة، كانت تعمل على تقديم العون الروحي والمادي للفقراء والمرضى والمتألمين. وكان أيضاً يزور سجن المدينة بصورة منتظمة حيث كان يعمل للمساعدة في إصلاح الخارجين على القانون.

وعلى الرغم من تكريس دونان نفسه لمثل هذا النوع من القضايا، إلا أنه لم يقصر أنشطته عليها. فقد شرع أيضاً في تأسيس مستقبل له في مجال الأعمال. ففي عام ١٨٤٩، تدرب في مؤسسة مصرفية في جنيف لتعلم الأعمال المصرفية. وقد تقدم في هذا العمل لدرجة أنه عين في ١٨٥٣ بصورة مؤقتة كمدير عام لفرع للشركة في الجزائر يحمل إسم «كولوني سويس دو ستيف». وفي وقت لاحق قطع دونان علاقاته مع الشركة وشرع في تنظيم مشروع لحسابه.

وكان يبدو أن هذا الشاب المفعم بالحيوية يتجه نحو مستقبل ناجح في مجال الأعمال واكتساب ثروة طائلة.

وبينما كان دونان في رحلة تجارية في إيطاليا، رمته الأقدار ليصل إلى كستليوني ديلا بيف في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه/ حزيران ١٨٥٩ الذي وقعت فيه معركة سولفرينو القريبة. وعندما غصَّت المدينة بالمصابين واتضح أن الخدمات الطبية العسكرية غير كافية، كان من الطبيعي جداً أن يحاول دونان المساعدة في تخفيف آلام الجرحى ومعاناتهم. وقد أمكن تحقيق ذلك بما كان يتمتع به من سجية وتقاليد وتدريب. وغيرت هذه التجربة مسار حياة دونان تماماً. فمنذ ذلك الوقت أصبحت أنشطة دونان التجارية واهتماماته الأخرى ثانوية إذ أنه سعى إلى إيجاد وسيلة يمكن بها منع تلك المعاناة بشكل ما أو على الأقل التخفيف منها في الحروب القادمة.

وشكَّل نشر كتاب تذكار سولفرينو بداية لفترة قصيرة وصل فيها دونان إلى ذروة نجاحه. فقد أيد أشخاص كثيرون اقتراحه بشأن تنظيم جمعيات من متطوعين مدربين في جميع البلدان للمساعدة في رعاية المقاتلين الجرحى في وقت الحرب. كما أثارت فكرته بشأن عقد معاهدة دولية بين الأمم لضمان تقديم رعاية إنسانية أفضل للجرحى اهتماماً كبيراً. وتنقل دونان بين عواصم أوروبية كثيرة. وفتحت له جميع الأبواب، وتمكن من التحدث مباشرة إلى أشخاص مؤثرين كثيرين. وأنصت الملوك وعامة الناس على حد سواء باحترام إلى دونان وهو يشرح مقترحاته. وإن كان بعض المستمعين إليه شكوا في جدوى ما كان ينادي به، فإنهم مع ذلك استمعوا إليه باهتمام. لقد كانت تجربة بهيجة لهذا الشاب الذي برز بدون سابق إنذار من العالم المغمور ليمس قلب أوروبا ويحرك ضميرها.

وفي السنتين ١٨٦٣ و١٨٦٤، بلغ نجم دونان قمته ومن ثم بدأ مباشرة في الهبوط. لقد تسابق الناس إلى دعمه وتأييده، وشكلت لجنة وعقدت مؤتمرات. بيد أنه في الوقت الذي كان يتحول فيه

الحلم إلى حقيقة، انزوى دونان الحالم تدريجياً عندما بدأ رجال عمليون بدرجة أكبر في تبني العمل. وشهد عاما ١٨٦٥ و١٨٦٦ مزيداً من الهبوط في مشاركته في الحركة التي ولّدتها مقترحاته. وكان حياء دونان أو خجله مسؤولاً إلى حد ما عن ذلك: فالشاب الذي كان بليغاً ومقنعاً بقلمه وفي أحاديثه مع الناس لم يكن له سوى القليل الذي يقوله أو يقدمه في الاجتماعات والمؤتمرات.

وكان عام ١٨٦٧ يمثل كارثة بالنسبة لدونان. إذ كان لابد من تصفية أعماله التي أهملها طويلاً. وفي هذه العملية اضطر إلى أن يضحي بكل ما كان يملك تقريباً في محاولة لإرضاء دائنيه. وسرعان ما ترك جنيف بعد ذلك إلى الأبد. وكان عمره آنذاك ٣٩ سنة.

كانت السنوات العشرون التالية سنوات صعبة بالنسبة لدونان حقاً. فقد عاش حياة مزعزعة على المبالغ الضئيلة التي لا تكفي المعيشة والتي كان يوسع الأصدقاء تقديمها له والمخصصات البسيطة التي كانت ترسل له من أفراد أسرته. ولم يكن الفقر والفاقة غريبين عليه. وأحياناً كان يعاود الظهور لفترات وجيزة أمام الجمهور، في فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وانجلترا لتكريمه على مشاركته في تأسيس الصليب الأحمر، أو في مناسبة مشاريع أخرى كان له فيها دور بارز. غير أنه كان يعيش مغموراً معظم الوقت.

وفجأة، في أحد أيام شهر يوليه/تموز ١٨٨٧، ظهر رجل مسن في مدينة هايدن السويسرية الصغيرة. وسرعان ما علم أهل المدينة أن الرجل هو دونان. وعلى الرغم من أنه لم يكن يتجاوز ٥٩ سنة من العمر، فإن عشرين سنة من خيبة الأمل والعوز قد أصابته بالشيخوخة قبل الأوان. وفي بيته الجديد، صادقه الكثيرون وأولوه التبجيل الذي يستحقه، وظل لفترة مهتماً بحماس بالتقدم الذي تحققه الحركة التي فعل الكثير من أجل تأسيسها. وأحياناً كان يتصل به أو يبحث عنه أصدقاء قليلون وأنصار سابقون ممن كانوا يسمعون عن أنه لايزال حياً. وفي عام ١٨٩٢ أرغمه اعتلال صحته

وتقدم سنه أخيراً على الإقامة في المستشفى المحلي حيث عاش طوال السنوات الثمان عشرة الأخيرة من حياته.

وفي ١٨٩٢، علم صحافي شاب كان في بعثة في الجبال القريبة من هايدن بوجود دونان وسعى إلى إجراء لقاء معه. وخلال أيام قليلة عرف العالم أن دونان لايزال على قيد الحياة وإن كان يعيش في ظروف قاسية إلى حد ما بالنسبة لشخص أعطى للعالم الكثير. وتوالت العروض لمساعدة الرجل؛ وتقاطرت رسائل التعبير عن الشكر والتقدير لخدماته العظيمة، من الأكابر والبسطاء، ومن قريب ومن بعيد. وأرسل البابا ليو الثالث عشر إليه صورته موقعاً عليها بنفسه كتب عليها بخطه «ليحل السلام بقوتك يا الله». وشعر دونان الهادئ في صفاء الشيخوخة بالتقدير لتلك اللفتات التي أغدقت عليه. غير أنه أوضح أنه ليس بحاجة إلى مساعدة؛ فاحتياجاته القليلة البسيطة يكفلها المستشفى وجيرانه في هايدن بقدر أكبر مما يكفي.

وبقيت في انتظار دونان ذروة التكريم. ففي عام ١٩٠١، منحته لجنة نوبل أول جائزة لها للسلام، شاركه فيها فردريك باسي الفرنسي. ولما كان دونان أضعف من أن يقوم بالرحلة الطويلة إلى كريستيانا لاستلام الجائزة والوسام، فإنهما أرسلا إليه في هايدن. وجاءته من جنيف، موطنه القديم رسالة من اللجنة الدولية للصليب الأحمر تقول: «ليس هناك من يستحق هذا الشرف أكثر منك، فأنت الذي أسست منذ أربعين سنة مضت، المنظمة الدولية لإغاثة الجرحى في الميدان. وبدونك ربما لم يكن من الممكن أن يتحقق ذلك الإنجاز الإنساني الأعظم، الصليب الأحمر.»

وفي يوم الأحد الموافق ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٠، توفي جون هنري دونان في هايدن بين الجبال وفي وسط الناس، حيث وجد هدوء البال والصداقة والطمأنينة.

تذكار سولفرينو

فتح انتصار ماجنتا الدامي أبواب ميلانو أمام الجيش الفرنسي، ورفع حماس الإيطاليين إلى ذروته، وراح سكان بافي Pavie ولودي Lodi وكريمون Crémone يهذون ترحيباً بمحرريهم. أما النمساويون فقد انسحبوا من خطوطهم على شواطئ أدّا Adda وأوليو Oglio وكييزي Chiese، وكانوا يريدون في الواقع أن يثأروا لهزائمهم السابقة ثأراً مبيناً، فكدّسوا على شواطئ مينشيو Mincio قوات ضخمة تولّى إمرتها بعزم وبسالة ذلك الشاب المقدام ـ امبراطور النمسا.

وفي ١٧ يونيو/حزيران، وصل الملك فكتور إمانويل Victor-Emmanuel إلى برتشيا Brescia، حيث قوبل بهتاف حماسي مفعم بالود من جانب شعبها الذي عانى من الضيق طيلة عشر سنوات، ورأى في ابن شارل ألبرت Charles-Albert المنقذ والبطل.

وفي اليوم التالي، دخل الامبراطور نابليون المدينة ذاتها منتصراً، يحيط به شعبٌ غمرته النشوة، سعيدٌ بالفرصة التي أتيحت له لإظهار عرفانه بالجميل للعاهل الذي جاء لمساعدته في استرجاع حريته واستقلاه.

وفي ٢١ يونيو/حزيران، ترك الامبراطور الفرنسي وملك سردينيا Sardaigne مدينة برتشيا بعد أن غادرتها جيوشهما في الليلة السابقة. وفي يوم ٢٢، تم احتلال لوناتو Lonato وكاستنيدولو Castenedolo ومونتكيارو Montechiaro. وأصدر الامبراطور ـ بوصفه قائداً عاماً ـ أوامره في مساء يوم ٢٣ يونيو/حزيران لجيش الملك فكتور إمانويل، الذي كان يشكل ميسرة جيش الحلفاء، أن

يتحرك من ديسنزانو Desenzano، التي كان يعسكر فيها، ليهاجم بوتزولنجو Pozzolengo في صبيحة يوم ٢٤. وكان على المارشال باراجوي ديلييه Baraguey d'Hilliers أن يتحرك في اتجاه سولفرينو، والمارشال دوق ماجنتا أن يزحف صوب كافريانا Cavriana، والجنرال نييل Niel أن يتجه إلى جويديتزولو Guidizzolo، والمارشال كانروبير Canrobert إلى ميدولي Médole، بينما تَلَقَّى الحرس الإمبراطوري أمراً بالذهاب إلى كاستليوني Castiglione. وقد بلغ قوام هذه القوات مجتمعة مائة وخمسين ألف رجل، يعززها أربعمائة مدفع.

أما امبراطور النمسا، فكان في حوزته تسع كتائب في لومبارديا Lombardie تضم مائتين وخمسين ألف رجل. وانضمت إلى جيش الغزو حاميات فيرونا Vérone ومانتوا Mantoue. وطبقاً لنصائح الفيلد مارشال بارون هيس Hess، قامت القوات الامبراطورية بانسحاب مستمر من ميلانو وبرتشيا كان هدفه تركيز كافة القوات التي يملكها النمساويون وقتئذ في إيطاليا بين نهري أديجي Adige. لكن القوات التي وصلت إلى خط النار لم تكن سوى سبع كتائب بلغ تعدادها مائة وسبعين ألف مقاتل، يدعمها نحو خمسمائة مدفع.

نقلت القيادة العامة الامبراطورية من فيرونا إلى فيلافرنكا Villafranca ثم إلى فاليجيو Valeggio. وصدر الأمر للقوات بمعاودة عبور المينشيو عند كل من بسكييرا Peschiera، وساليونزي Salionze، وفاليجيو، وفيري Ferri، وجويتو Goïto، ومانتوا. واتخذ الجزء الأعظم من الجيش مواقعه بين بوتزولنجو وجويديتزولو استعداداً لمهاجمة جيش فرنسا وسردينيا بين نهري مينشيو وكييزي، وذلك تحت إلحاح عدد من أقدم المارشالات وأكثرهم حنكة.

وقامت القوات النمساوية بقيادة الامبراطور بتشكيل جيشين: الأول تحت إمرة الفيلد مارشال كونت ويمبفن Wimpffen، ويضم تحت لوائه كتائب يقودها الأمير إدموند دي شوارزنبرج Edmond de Schwarzenberg والكونت شافجوتش Schaffgotsche والبارون دي فيجل de Veigl، كما يضم فرقة خيالة يقودها الكونت زيدويتس Zedtwitz. وكان الجيش الأول يمثل الميسرة، وقد اتخذ مواقعه بالقرب من فولتا Volta، وجويديتزولو، وميدولي، وكاستل ـ جوفريدو Castel-Goffredo. أما الجيش الثاني فكان بقيادة الكونت شليك Schlick قائد الخيالة، ويضم تحت لوائه كلا من المارشالات: الكونت كلام ـ جالاس Clam-Gallas، والكونت ستاديون Stadion، والبارون دي زوبل de Zobel، والفارس دي بنيديك de Benedek، كما يضم فرقة خيالة يقودها الكونت منسدورف Mendsdorff. وكان الجيش الثاني يمثل جيش الميمنة، وقد سيطر على كافريانا، وسولفرينو، وبوتزولنجو، وسان مارتينو San Martino.

وعليه، فإن كافة المرتفعات القائمة بين بوتزولنجو، وسولفرينو، وكافريانا، وجويديتزولو كانت محتلة في صبيحة يوم ٢٤ يونيو/ حزيران، يسيطر عليها النمساويون الذين نصبوا مدفعيتهم الهائلة فوق سلسلة من الروابي لتصبح بمثابة مركز لخط هجومي ضخم يسمح لميسرة الجيش وميمنته بالانسحاب في حماية تلك المرتفعات المنيعة التي لم يكن في نظرهم بالإمكان اغتصابها.

ولم يتوقع الجيشان المتعاديان التلاقي والاصطدام على وجه السرعة، رغم تقدمهما الواحد قبالة الآخر. فالنمساويون يأملون أن يكون جزء فقط من جيش الحلفاء قد عبر نهر كييزي. ولم يكن بإمكانهم تحديد نوايا الامبراطور نابليون، كما أن المعلومات التي أفيدوا بها لم تكن دقيقة.

ولم يتصور الحلفاء أنهم بصدد مواجهة جيش امبراطور النمسا بهذا الشكل المفاجئ، إذ أن المعلومات التي عاد بها رجال الاستطلاع والمراقبة، وتقارير طلائع الاستكشاف، وعمليات الرصد بالمنطاد التي قاموا بها يوم الثالث والعشرين، لم تقدم لهم الدليل على توقع هجوم معادٍ.

وهكذا كان التقاء النمساويين مع قوات فرنسا وسرينيا يوم الجمعة ٢٤ يونيو/حزيران مفاجأة حقيقية رغم توقع الجانبين لمعركة كبيرة وشيكة، إذ أخطأ كل منهما في تقدير تحركات خصمه.

وربما سمع كلٍ منا شيئاً أو استطاع أن يقرأ رواية عن موقعة سولفرينو، فلم تمَحَ بعد، دون شك، ذكراها النابضة من ذهن أي فرد، لا سيما وأن عواقب ذلك النهار لم تزل ملموسة في كثير من بلدان أوروبا.

كنت مجرد سائح غريب تماماً عن تلك المعركة الكبرى، وظفرت بفرصة نادرة نسجتها لي ظروف خاصة مكنتني من أن أكون شاهد عيان لتلك الأحداث المؤثرة، التي قررت أن أحكي وقائعها. إنني لا أسرد على هذه الصفحات سوى انطباعاتي الشخصية. فلا يجب إذن أن نبحث فيها عن تفاصيل معينة أو معلومات استراتيجية. فهذه وتلك تجد لها مكاناً في مؤلفات أخرى.

في ذلك اليوم المشهود ـ يوم ٢٤ يونيو/حزيران ـ تجمع للقتال ما يزيد على ثلاثمائة ألف رجل، وامتد خط المواجهة مسافة خمسة فراسخ[1]، ودام القتال أكثر من خمس عشرة ساعة.

كان على الجيش النمساوي، الذي تكبد مشاق مسيرة صعبة طوال ليلة كاملة، أن يتلقى في فجر يوم ٢٤ الضربة العنيفة من جيش

(١) الفرسخ = نحو ٣ أميال.

الحلفاء، وأن يقاسي بعد ذلك من الحموّ المفرط للحرارة الخانقة، وكذلك الجوع والظمأ، إذ لم يتهيأ لتلك القوات شئ من الزاد تقريباً طوال يوم الجمعة، باستثناء جرعة مضاعفة من مشروب كحولي. أما الجيش الفرنسي الذي تحرك قبل أول خيط لضوء النهار، فلم يكن قد تناول سوى قهوة الصباح. لذلك بلغ المقاتلون، ولا سيما الجرحى البؤساء، أقصى درجات الإعياء بانتهاء تلك المعركة الرهيبة!

تحرك الفيلقان الفرنسيان، الأول والثاني، في نحو الساعة الثالثة صباحاً بقيادة المارشالين باراجوي ديلييه وددي ماك ماهون de Mac-Mahon لمهاجمة سولفرينو وكافريانا. إلا أنه ما أن عبرت رؤوس الأرتال كاستليوني، حتى أصبحت في مواجهة طلائع الجيش النمساوي تنازعهم أرض المعركة.

وهنا أصبح الجيشان بغتة وجهاً لوجه.

ويبوق نفير الحرب من كل صوب، ويتردد دَويّ طبول القتال.

ويتجه الامبراطور نابيلون إلى كاستليوني على عجل بعد أن قضى الليل في مونتكيارو.

في الساعة السادسة صباحاً كانت النيران قد احتدمت بضراوة. ويتقدم النمساويون بنظام تام على الطرق الممهدة. وكانت البيارق ذات اللونين الأصفر والأسود التي تحمل رسم النسر الامبراطوري الألماني ترفرف في قلب حشودهم المتراصة من الرجال ذوي السُتَر البيضاء.

وانفرد الحرس الفرنسي بمشهد مهيب حقاً بين فيالق الجيش المتأهبة للقتال كافة. فقد كان النهار مضيئاً، وضوء الشمس الإيطالية الباهر

يسقط على الدروع والخُوَذ اللامعة للمشاة الدارعين وحرس الخيالة والرماحين والفرسان المدرعين.

ترك الامبراطور فرنسوا جوزيف François-Joseph مقر قيادته منذ بداية الاشتباك، ومعه أركان حربه بالكامل، قاصداً فولتا، يصحبه عدد من أمراء أسرة اللورين Lorraine. من بينهم الدوق الأعظم لتوسكان Toscane، ودوق مودينا Modène.

ووقع أول اشتباك في ظروف أرض صعبة يجهلها الحلفاء تماماً. وكان على الجيش الفرنسي منذ البداية أن يشق لنفسه طريقاً وسط صفوف أشجار التوت المتشابكة مع الكروم، والتي كانت تمثل عائقاً حقيقياً لتقدمه. كما أن سطح الأرض كان مليئاً بالحفر الكبيرة الجافة والحواجز العالية التي يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وخمسة أقدام، ذات قاعدة عريضة جداً وتستدق في اتجاه القمة، فكان لابد للخيل من تسلق الحواجز، والقفز فوق الحفر.

وعلى الفور، نزل النمساويون الذين ارتكزوا فوق المرتفعات والروابي كالصاعقة بمدفعيتهم على الجيش الفرنسي، فأمطروه بوابل متصل من القذائف والقنابل ودانات المدافع.

وتختلط سحائب الدخان الكثيفة الناتجة من المدافع وسيل النيران المنهمر مع الغبار والأتربة التي يثيرها ذلك التيار المتقاطر بلا انقطاع من المقذوفات وهو يضرب الأرض بعنف. وأمام تلك الصاعقة التي نزلت من مدفعية العدو، الهادرة وهي تصب الموت، يهب الفرنسيون كعاصفة مضادة مندفعة من السهل لمهاجمة المواقع المعادية موطدين العزم على الاستيلاء عليها.

ومع حلول قيظ الظهيرة في ذلك النهار كانت المعارك التي استعرت في كل مكان تزداد عنفاً وضراوة.

وترتمي الطوابير المتراصة الواحد فوق الآخر باندفاع سيل جارف يطيح بكل ما يعترض سبيله، فتنقض الأفواج الفرنسية بصورة منتشرة على الحشود النمساوية التي تتجدد دون انقطاع بأعداد أكبر وتهديد أشد لتصد الهجوم بقوة وكأنما هي حوائط حديدية، إن فرقاً بأكملها تتخلص من مخلاتها حتى تنقضّ بحرية أكبر على العدو موجّهة حرابها إلى الأمام، فإذا اندحرت كتيبة أعقبتها أخرى على التّو. وأصبح كل تلّ وكل ربوة وكل قمة صخرة مسرحاً لمعركة طاحنة. فكانت أكوام الجثث تغطي السهل والتلّ.

هنا يجري التحام مباشر، رهيب ومروع، بين النمساويين والفرنسيين، يشتبكون فيه جسماً مع جسم، فيدوس بعضهم البعض بالأقدام، ويتقاتلون فوق الجثث الدامية، مستخدمين في الضرب أخامص البنادق، فتتحطم الجماجم، وتُبقَر البطون بالسيوف والحراب. لقد اختفت الرحمة، فتحولت المعركة إلى مجزرة حقيقية، وصراع وحوش كاسرة هائجة أسكرتها الدماء. حتى الجرحى يدافعون عن أنفسهم إلى الرمق الأخير. أمّا من فقد سلاحه، فهو يمسك بعنق خصمه ليمزقه بأسنانه.

وهناك في مكان آخر تجري معركة مماثلة، ولكنها تصبح أشد هولاً بدنوّ سرية خيالة راكضة فتسحق الخيلُ القتلى والمحتضرين تحت حوافرها الحديدية. فهذا جريح مسكين نُزع فكه، وآخر تهشمت رأسه، وثالث تم إنقاذه لكن صدره قد تقعر إلى الداخل. ويختلط صهيل الخيل بالصيحات وصرخات الوجع النّاغر وأنّات الألم والقنوط.

ويأتي دور المدفعية في أعقاب الخيالة، فتتواتر طلقاتها من بعيد دون هوادة، فتشق لنفسها ممرات وسط القتلى والجرحى الممددين بلا تمييز على الأرض، فتنفجر المخاخ، وتتحطم الأعضاء وتنسحق،

وتضيع معالم الأجساد، وترتوي الأرض بالدماء، وتفترش السهلَ أشلاء البشر.

تتسلق القوات الفرنسية الرُّبى، وترتقي التلال الوعرة والمنحدرات الصخرية بحماس بالغ تحت وابل النيران النمساوية وشظايا القنابل والقذائف. وما أن تؤخذ ربوة بعد عناء، وتتمكن نخبة من القوات من اعتلاء قمتها، وقد هدّها التعب غارقة في عرقها، حتى تحطّ كجلمود على النمساويين لتدحرهم وتطردهم من موقع جديد، ثم تطاردهم وتلاحقهم حتى قيعان الأودية أو الأخاديد.

كانت مواقع النمساويين ممتازة، إذ تحصنوا في بيوت وكنائس ميدولي وسولفرينو وكافريانا. ولكن ما من شئ يوقف المذبحة أو يعطلها أو يقلل من بشاعتها، فالناس يُقتلون جُملةً، ويُقتلون فرادى، وكل ثنية من ثنايا الأرض تؤخذ عُنوة بالحرب، وتُنتزع المواقع شبراً شبراً، وتُستخلص القرى بيتاً بعد بيت ومزرعة تلو المزرعة، يلف الحصار كلاً منها، فيصبح كل باب وكل نافذة وكل ساحة مسرحاً لمذبحة مروعة.

أحدثت النيران الفرنسية هرجاً رهيباً وسط الحشود النمساوية، وامتد تأثيرها لمسافات مذهلة، فغصّت التلال بأجساد القتلى، وامتد الدمار إلى الاحتياطيات النائية للجيش الألماني. ولكن إذا كان النمساويون يتركون أرضاً، فإنهم لا يتناولون عنها إلا خطوة خطوة، وبهدف معاودة الكرَّة في أقرب وقت، فتنتظم صفوفهم المرة تلو المرة لتصيبهم الهزيمة السريعة من جديد.

وكانت الرياح في السهل ترفع موجات الغبار التي اجتاحت الطرق مكونة سحائب متكاثفة أظلمت الجو وأعمت المقاتلين.

وإذا كان القتال يبدو بين الحين والآخر وكأنه قد توقف هنا أو هناك، فذلك إنما ليبدأ ثانية وبضراوة أكبر. فالنمساويون يعاودون

دفع احتياطياتهم الجديدة لملء الفراغات التي تحدثها في صفوفهم هجمة عنيدة فتاكة للفرنسيين. ويصدر دوي الطبول فينة بعد فينة من هذا الجانب أو ذاك، وتعلن الأبواق عن إغارة من هنا أو من هناك.

كانت قوات الحرس تتصرف بأسمى ما تكون عليه الشجاعة، بياريهم في البسالة والأقدام القناصة وجند خط الالتحام. والجند الزواويون ينقضّون بالحراب، ويهجمون كوحوش كاسرة، مطلقين صرخات هوجاء. وتنصب الخيالة الفرنسية على الخيالة النمساوية، فالضاربون بالسهام وجند الخيالة يتعاملون بالتخريق والتمزيق. والخيل، وقد أهاجتها حدة المعركة، تسهم هي الأخرى في ذلك العنف، فترتمي على خيل الأعداء وتنهشها بحنق، بينما يتعامل راكبوها من الفرسان بالتبتير والتقطيع بالسيوف.

وتصاعدت ضراوة القتال في بعض المواقع التي نفدت منها الذخيرة وتكسرت فيها البنادق، فتراشق الجند بالحجارة، وتصارعوا بالأيدي والأجساد. وكان الجند الكرواتيون Croates يذبحون كل من يلتقون به، ويُجهزون على جرحى الحلفاء بالضرب بأخامص البنادق، بينما كان القناصة الجزائريون يُجْهزون بنفس الأسلوب على المحتضرين البؤساء من ضباط أو جند نمساويين، وذلك رغم المحاولات التي بذلها قادتهم لتهدئة هياجهم، كما كانوا ينقضون على الصفوف المعادية بهدير وحشي وصرخات مروعة.

كانت أقوى المواقع تُحتل لتُفقد، ثم تُسترد لتُفقد ثانية ثم تستعاد من جديد. ويسقط الرجال في كل موقع بالآلاف مشوهين، مبقوري البطون، مثقبين بالرصاص أو مصابين بإصابات قاتلة بقذائف من كل صنف وضرب.

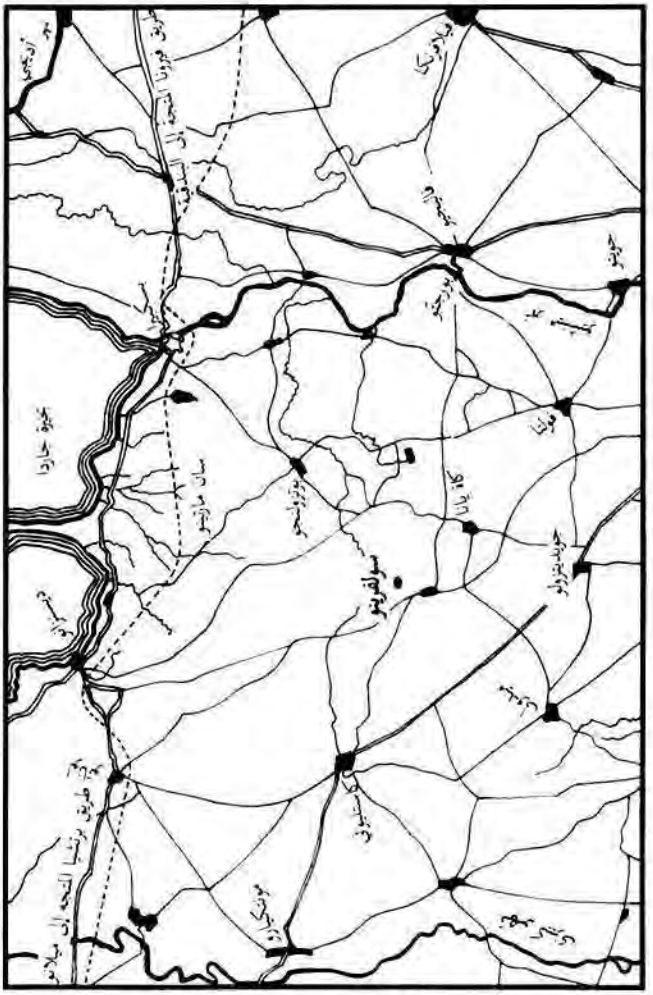

خارطة رسمها هنري دونان تبين أهم أحداث موقعة سولفرينو ٢٤ يونيه/حزيران ١٨٥٩.

إن من يرقب الأحداث من على المرتفعات القريبة من كاستليوني يستطيع، رغم عدم متابعته لسير المعركة بدقة، أن يدرك غاية النمساويين وهي دحر مركز قوات الحلفاء بغية تعطيل ووقف الهجوم على سولفرينو التي تمثل، بحكم موقعها الرائع، المحور الرئيسي للمعركة، كما يستطيع أن يتكهن بمحاولات امبراطور الفرنسيين لتجميع فيالق جيشه المختلفة ليكون بمقدورها أن تتماسك وتتساند.

رأى الامبراطور نابليون بثاقب نظره وسرعة إلمامه بالموقف أن فرق الجيش النمساوي تنقصها القيادة القوية المتجانسة، فأصدر أمره لفيالق باراجوي وماك ماهون، ثم لقوات حرسه بقيادة المارشال الشجاع رينيو دي سان جون دانجلي Regnaud de Saint-Jean d'Angely للإغارة في آن واحد على حصون سولفرينو وسان كاسيانو San Cassiano لدحر مركز قوات العدو المشكل من فيالق ستاديون وكلام ـ جلاس وزوبل الذين توافدوا، واحداً بعد الآخر، للدفاع عن تلك المواقع البالغة الأهمية.

وفي سان مارتينو صمد الفيلد مارشال الباسل المقدام بنيديك طوال النهار ومعه جزء صغير من الجيش الثاني النمساوي أمام جيش سردينيا، الذي كان يقاتل ببطولة تحت لواء مليكه الذي بعث وجودُه الحمية في قلوب جنده.

وكانت ميمنة جيش الحلفاء المشكّلة من فيالق الجنرال نيبل والمارشال كانروبير تقاوم بحماس جامح الجيش الأول الألماني بقيادة الكونت ويمبفن. ولكن فيالق هذا الجيش الثلاثة التي كان يقودها كل من شوارزنبرج وشافجوتش ودي فيجل لم تنجح في تنسيق العمل فيما بينها.

ولم ينزل المارشال كانروبير بالقوات التي كانت في حوزته إلى المعركة منذ الصباح، ولكنه احتفظ بها في وضع الانتظار والترقب. وكان ذلك موقفاً له ما يبرره ويتفق تماماً مع أوامر الامبراطور نابليون. ومع ذلك، فقد انتهى الأمر باشتراك الجزء الأكبر من تلك القوات في القتال، وساهمت فرقتا رينو Renault وتروشو Trochu وفرقة الخيالة بارتونو Partouneaux في المعركة بدور بالغ الحيوية.

وإذا كان المارشال كانروبير قد أحجم في البداية انتظاراً لقدوم فيلق الأمير إدوارد دي ليشتنشتاين Edouard de Liechtenstein، الذي لم يكن ضمن الجيشين النمساويين، والذي غادر مانتوا في ذلك الصباح مما أقلق بال الامبراطور نابليون، فإن فيلق ليشتنشتاين بدوره قد أصيب بالهلع والشلل التام لتوقعه اقتراب فيلق الأمير نابليون، الذي تحركت إحدى فرقه، من بليزانس Plaisance.

انطلقت الشرارة الأولى لمعارك ذلك اليوم المشهود من صفوف القوات الباسلة التي يقودها الجنرالان فوري Forey ودي لادميرو de Ladmirault. وسيطرت هذه القوات بعد صراع يفوق الوصف على المرتفعات والتلال المؤدية إلى جبل السرو الأنيق الذي خلده برج ومقبرة سولفرينو والمذبحة الرهيبة التي كانت تلك المناطق مسرحاً دامياً لها وشواهد مهيبة لوقائعها. وتم اقتحام جبل السرو والاستيلاء عليه في النهاية، ووضع العقيد دوفيرن d'Auvergne منديله ليرفرف على طرف سيفه فوق قمة الجبل كدليل على النصر.

لكن ثمن النصر كان غالياً بسبب الخسائر الفادحة التي تكبدها الحلفاء، فقد تهشم كتف الجنرال دي لادميرو برصاصة، ووافق بصعوبة على العلاج بمركز إسعاف أنشئ في كنيسة إحدى الضياع الصغيرة، ثم عاد مترجلاً، رغم خطورة جرحه، إلى المعركة، حيث كان يثير حمية جنده عندما أصابت رصاصة ثانية ساقه اليسرى.

أما الجنرال فوري، الذي كان هادئاً باستمرار، غير عابئ بمصاعب الموقع، فقد أصيب أحد حقويه، وتثقب بالرصاص معطفه الأبيض الذي كان يرتديه فوق زيِّه العسكري. كما سقط إلى جانبه مرافقوه وأحدهم، وهو الجنرال كرفينويل Kervenoël وعمره خمسة وعشرون عاماً فقط، قد انفصلت رأسه بشظية مقذوف.

وبينما كان الجنرال ديو Dieu يتقدم بجنده على سفح جبل السرو، إذ به يسقط من فوق جواده مصاباً بجرح أفضى إلى موته. كما جُرح الجنرال دواي Douay بالقرب من أخيه الكولونيل دواي الذي لقي مصرعه. وتهشم الساعد الأيسر للجنرال بريجادير أوجي Auger لإصابته بقنبلة مدفع. وقد مُنح أوجي رتبة الجنرال في ميدان تلك المعركة التي كلفته حياته.

كان الضباط الفرنسيون يتقدمون جندهم دائماً، ويلوحون في الهواء بسيوفهم، فيندفع الجند وراءهم مقتادين بمثلهم. وكان الضباط يتساقطون، الواحد تلو الآخر، وهم على رأس كتائبهم، إذ كانت النياشين والرتب التي يحملونها على أكتافهم تميّزهم فتجعلهم أهدافاً لطلقات القناصة التيروليين.

كم من مآس ومشاهد مفجعة من كل نوع، وكم من تقلبات مؤثرة!

فهناك في الفرقة الأولى للقناصة الأفريقيين، وإلى جانب العقيد لوران ديزوند Laurans des Ondes الذي سقط بغتة صريع إصابة قاتلة، نجد الملازم سالينيك فينلون Salignac Fénelon وعمره اثنان وعشرون عاماً فقط وقد دفع حياته ثمناً لعمل بطولي رائع هو تدمير تشكيل مربع نمساوي بأكمله.

وهناك الكولونيل دي مالفيل de Maleville الذي وجد نفسه في مواجهة نيران العدو الحامية في مزرعة كازانوفا Casa Nova، وقد

فاقه عدوه في العدد، ونفدت ذخيرة كتيبته، فأمسك ببيرق كتيبته واندفع إلى الأمام صارخاً: من يحب رايته يتبعني! وإذا بجنده الذين أنهكهم الجوع والتعب يلقون بأنفسهم خلفه شاهرين حرابهم. لقد كسرت ساقه برصاصة، لكنه استمر، رغم الآلام المبرحة، في قيادة الكتيبة متحاملاً على جواده.

وعلى مقربة، لقي إيبير Hébert، وهو قائد كتيبة، مصرعه خلال التحام ضار ليحول دون ضياع بيرق موسوم بالنسر. لقد وجد القوة بعد أن طُرح أرضاً وداسته الأرجل ليصرخ في رجاله قبل الموت «الشجاعة يا أولادي!».

وعلى رابية برج سولفرينو نجد الملازم مونيليا Monéglia، وهو من قناصة الحرس الراجلين، يستولي بمفرده على ستة مدافع، منها أربعة بأطقمها كاملة، مما جعل قائدهم العقيد النمساوي يسلم له سيفه.

وهنا نرى الملازم دي جيزول de Guiseul رافعاً بيرق إحدى فرق الجبهة محاطاً مع كتيبته بعشرة أمثال قواته، وقد أصيب بطلقة فتدحرج على الأرض محتضناً بقوة وديعته الغالية، فيتلقفها منه رقيب لينقذها من أيدي العدو. لكن قذيفة تطيح برأسه. فيلتقط سارية البيرق نقيبٌ جريح يصطبغ بدمائه البيرق الذي تمزق وتكسر. وهكذا كان كل الذين يحملون ذلك البيرق من ضباط صف أو جند يتساقطون جرحى الواحد تلو الآخر. لكن أجساد الأحياء والأموات ظلت له متراساً حتى النهاية. واستقرت بقاياه المجيدة أخيراً ضائعة المعالم بين يدي رقيب من فرقة العقيد أباتوتشي Abattucci.

انقض الماجور دي لاروشفوكو ليانكور de La Rochefoucauld Liancourt، القناص الأفريقي الباسل على تشكيلات مربع مجري، لكن جواده أصبح مثقباً كالغربال

بالطلقات. أما هو فقد سقط جريحاً بطلقتين، وأسره المجريون الذين أعادوا تشكيل مربعهم.

وفي جويديتزولـو نرى الأمير شارل دي ويندیش ـ جريتز Charles de Windisch-Graetz، وهو عقيد نمساوي مقدام ـ يحاول دون جدوى على رأس فرقته انتزاع واستعادة موقع كازانوفا الحصين. لقد جابه ذلك الأمير التعس والبطل النبيل الشجاع موتاً محققاً، وكان، رغم جرحه المميت لا يزال يصدر أوامره. وكان الجند يحملونه بين أذرعهم، واقفين بلا حراك تحت وابل من الرصاص، مكونين له ملجأ يحميه حتى النهاية. كانوا يوقنون أنهم سيموتون، ولكنهم لم يريدوا التخلي عن زعيمهم الذي يكنّون له الحب والاحترام، والذي حالما فارق الحياة.

سقط المارشالان الكونت دي كرينفيل de Crenneville والكونت بالفي Palffy بينما كانا يقاتلان ببسالة فائقة مصابين بجراح خطيرة، كما سقط المارشال بلومبرج Blomberg والماجور جنرال بالتين Baltin من فيلق البارون دي فيجل. وقتل البارون ستورمفيدر Sturmfeder، والبارون بيدول Pidoll، والعقيد دي مومب de Mumb. ولقي الملازمان دي ستايجر de Steiger ودي فيشر de Fischer مصرعهما في بسالة وإقدام غير بعيدين عن أمير إيزمبورج d'Isembourg الشاب، الذي كان أسعد حظاً فنقل من ميدان المعركة وفيه نسمة حياة.

ودخل المارشال باراجوي ديلييه قرية سولفرينو يتبعه الجنرالات لوبيف Lebœuf، وبازين Bazaine، ودي نجريي de Négrier، ودواي، ودالتون d'Alton، وفورجيو Forgeot، والعقيدان كامبرييل Cambriels وميشلير Micheler. وكان الكونت ستاديون يتولى الدفاع عن القرية مع المارشالين بالفي وستيرنبرج Sternberg. وكانت الألوية التابعة لهما بقيادة بيلز Bils، وبوشنر

Puchner، وجال Gaal، وكولر Koller، وفستيتكس Festetics تتصدى لمدة طويلة للهجمات البالغة الضراوة التي تميز بها الجنرال كامو Camou وقناصته ومشاته الخفافة، والعقيدان برنكور Brincourt ودي تاكسيس de Taxis، اللذان أصيبا بجراح، والمقدم إيمار Hémard الذي اخترقت صدره رصاصتان.

وكان الجنرال ديزفو Desvaux على رأس خيالته يقاوم بشجاعته المعهودة ورباطة جأشه الفائقة وفي كفاح مرير الصدمة الهائلة للمشاة المجرين. لقد كان دائماً في مقدمة فرقته في الأماكن الأكثر تعرضاً للخطر، يساعد بعزيمة فرسانه التي لا تقهر في الهجوم العنيف الذي شنه الجنرال تروشو على فيالق دي فيجل وشوارزنبرج وشافجوتش في كل من جويديتزولو ورييكو Rebecco، حيث تفوق أيضاً الجنرالان موريس Morris وبارتونو في الهجوم على خيالة منسدورف.

وبفضل المثابرة الوطيدة للجنرال نييل ومعه الجنرالات دي فايي de Failly وفينوي Vinoy ودي لوزي de Luzy في مقاومة ثلاث فرق كبرى من جيش الكونت ويمبفن في سهل ميدولي، تمكن المارشال ماك ماهون ومعه الجنرالان دي لاموتروج de La Motterouge وديكين Decaen وخيالة الحرس من الوصول إلى تلال سان كاسيانو وكافريانا بالالتفاف حول المرتفعات التي تمثل مفتاح تلك المواقع، والاستقرار على تلك السلسلة من التلال المتوازية حيث تركزت قوات المارشالين كلام ـ جلاس وزوبل. إلا أن الفارس أمير هيس، وهو واحد من أبطال الجيش النمساوي، جدير بأن يُقارَن بقاهر ماجنتا الشهير، وكان قد حارب ببسالة في سان كاسيانو، قاوم الهجمات المستمرة التي شنت على جبل فونتانا Fontana برواياه الثلاث. وتحت وابل من رصاص النمساويين، قام الجنرال دي سيفلانج

de Sévelinges برفع مدافعه المحززة إلى التلال المنحدرة. وتولى رماة القنابل شدها إلى أعلى إذ لم تقو الخيل على ارتقاء تلك المنحدرات الوعرة. ولكي تستطيع وحدات المدفعية المنقولة بهذه الطريقة المبتكرة إلى قمم تلك التلال أن تصبّ جاماتها الصاعقة على العدو، فإن رماة القنابل كانوا يمدون جنود المدفعية بالذخيرة التي يمررونها بهدوء من يد إلى يد في طابور أخذ بدايته عند عربات الذخيرة القابعة في السهل.

وقد سيطر الجنرال دي لاموتروج أخيراً على كافريانا رغم المقاومة العنيفة والهجمات المضادة المتجددة من جانب الضباط الألمان الشبان، الذين كانوا يعيدون قواتهم إلى القتال مرات عدة.

وكان مشاة الجنرال مانيك Manèque يعيدون تعبئة جعابهم الفارغة بالذخيرة التي كان يحملها رماة القنابل، إلا أن الجعاب حالما فرغت من جديد. عندئذ انطلق هؤلاء الجند شاهرين الحراب إلى المرتفعات الواقعة بين سولفرينو وكافريانا، واستولوا على تلك المواقع بمساعدة الجنرال الباسل ملينيه Mellinet رغم أنهم كانوا يقاتلون قوات ضخمة.

وسقطت ريبيكو Rebecco في قبضة الحلفاء، ثم عادت إلى سيطرة النمساويين ليتم الاستيلاء عليها من جديد، ثم تُسترجع، ولكنها تستقر في نهاية المطاف في حوزة الجنرال رينو.

قُتل أثناء الهجوم على جبل فونتانا كثير من القناصة الجزائريين، كما قتل من قادتهم العقيدان لور Laure وهرمان Herment، وسقط من ضباطهم عدد كبير، وقد ضاعف ذلك من حنقهم واندفاعهم، وخفُّوا هائجين للثأر لأمواتهم، فانقضّوا على أعدائهم بحمية الأفريقي وحماسة المسلم، فأثخنوا فيهم بسُعْر دون هوادة أو راحة كنمور متعطشة إلى الدماء.

أما الكرواتيون فكانوا يرتمون على الأرض، ويختبئون في الحفر تاركين أعداءهم يقتربون، ثم ينهضون بغتة ليقتلوهم عندما يكونون عن كثب.

وفي سان مارتينو جرح النقيب بالافيشيني Pallavicini قائد مجموعة المشاة الإيطالية، فتلقفه جنده على أذرعهم، وحملوه إلى إحدى الكنائس حيث وضعوه ليتلقى الإسعافات الأولية، لكن النمساويين الذين تراجعوا مؤقتاً أعادوا الكرَّة ودخلوا تلك الكنيسة. ولما كان المشاة الإيطاليون من القلّة بحيث لا يستطيعون المقاومة، فقد اضطروا إلى ترك قائدهم. وفي الحال تناول الكرواتيون أحجاراً كبيرة كانت ملقاة عند باب الكنيسة، وسحقوا بها رأس الضابط المسكين فانفجرت جمجمته، وتناثر مخه على سُتَرهم.

وتُسمع وسط هذا السيل المتدفق من المعارك المتنوعة والمتجددة دائماً لعنات صادرة من أفواه رجال من أمم شتى، أرغم العديد منهم فأصبحوا قتلة في سن العشرين!

وهناك في ذروة الملحمة، وبينما الأرض ترتجف تحت إعصار الحديد والكبريت والرصاص الذي كانت ضرباته تكنس الأرض كنساً، وبينما ألسنة النار في كل مكان تضيف شهداء جدداً لهذه المجزرة البشرية وهي تمشط الأجواء بغضب مثل بروق مميتة دائماً، نرى الأب لين Laine، المرشد الروحي لنابليون يطوف بالمستشفيات الميدانية مطيباً خاطر المحتضرين بكلمات المواساة والتعاطف.

وحدث أن كُسر الساعد الأيسر لملازم على خط النار لإصابته بطلقة من بندقية، وسال الدم من جرحه بغزارة. وبينما كان يجلس تحت شجرة إذا بجندي مجري يسدد نحوه النار لولا أن منعه أحد ضباط فرقته. ثم اقترب الضابط للتو من الشاب الفرنسي الجريح وشدّ على يديه بشفقة، وأمر بنقله إلى مكان أقل خطراً.

وتتقدم النساء العاملات في المطعم تحت نيران العدو كجنود بسطاء لجمع المقاتلين المشوهين البؤساء الذين يلحّون في طلب الماء، ولكن كثيراً ما يُصَبّ بينما يقدمّن الماء لهم ليشربوا ويجتهدن في الاعتناء بهم[٢]، هنا نجد أن أحد فرسان الخيالة الخفيفة وقد وهن من خروج الدم بكثرة من جروحه يتخبط محاولاً التخلص من جثة جواده الذي سقط عليه بقوة بعد إصابته بشظية مقذوف. وبالقرب منه نرى جواداً فارّاً يجّر معه في ركضه جثة فارسه الدامية المعلقة عليه. ونرى عن بُعد خيلاً أكثر إنسانية من راكبيها من البشر، إذ تتحاشى في خطوها دهسَ ضحايا هذه المعركة العنيفة المشتعلة.

انقلب أحد ضباط الفرقة الأجنبية برصاصة أردته جثة هامدة. وكان يصطحب كلبه الذي تعلق به للغاية وأحضره معه من الجزائر. وكان الكلب صديقاً لكل أفراد الكتيبة، فتابع المسيرة مع المقاتلين مشدوداً بحماسهم بعد موت صاحبه. لكنه سقط بدوره جريحاً على بعد خطوات مضروباً هو الآخر برصاصة. ومع ذلك، فقد وجد شيئاً من القوة ليجر نفسه كي يعود ليلقي بجسده فوق جسد سيده ليموت معه. وفي فرقة أخرى نرى ماعزة اصطحبها واحد من جنود المشاة الخفيفة، وأحبها كل الجنود، وهي تندفع إلى الأمام دون وجل في الهجوم على سولفرينو عبر طلقات الرصاص والشظايا.

كم من المقاتلين البواسل الذين لم يوقفهم أول جرح، فتابعوا السير إلى الأمام حتى طرحتهم على الأرض إصابات جديدة فلم يعد

(٢) ربما أحرق المكسيكيون هؤلاء النسوة وهن على قيد الحياة في ٩ يونيو ١٨٦٢، وقد ربطوهن بسلاسل في عربات البارود مع عشر جنود آخرين كانوا يقودون قافلة لنقل المؤن والذخيرة إلى معسكر فرنسي من فيراكروز Vera-Cruz (إحدى ولايات المكسيك) وحاصرتهم مجموعة من العصابات بالقرب من تيخيريا Tejeria.

بإمكانهم مواصلة القتال، بينما اضطرت كتائب بأكملها إلى البقاء دون حراك انتظاراً لأوامر لم تصدر للتحرك، وهي تتعرض للنيران القاتلة البالغة العنف، وأجبرت على الوقوف موقف المتفرج الساكن دون أن تشترك في معركة تعرّضهم للإبادة، ولكنها تغلي من نفاد الصبر.

كانت قوات سردينيا تدافع عن روابي سان مارتينو وروكولو Roccolo ولامادونّا ديللا سكوبرتا Madonna della Scoperta، وتُوجّه لها بعد ذلك هجمات متكررة منذ الصباح وحتى المساء. فقد جرى احتلال هذه المواقع واستردادها خمس وست مرات متتالية. وانتهى الأمر بالسيطرة على بوتزولنجو رغم أن هذه القوات كانت تعمل كفرق مستقلة متتابعة لا يربط بينها سوى تنسيق لا يذكر. وقام الجنرالات النمساويون مولار Mollard، ودي لا مرمورا de La Mermora، ودللا روكا Della Rocca، ودوراندو Durando، وفانتي Fanti، وشيالديني Cialdini، وكوكياري Cucchiari، ودي سوناز de Sonnaz، ومعهم الضباط من كل الأسلحة والرتب بمساندة جهود مليكهم الذي أصيب أمام عينيه جنرالاته بريبه Perrier، وسيرال Cerale، وأرنولدي Arnoldi.

وفي الجيش الفرنسي، وبالإضافة إلى الدور الذي لعبه كبار القادة من مارشالات وجنرالات، كيف لا نذكر الدور المجيد الذي أداه العمداء البواسل، والعقداء العباقرة، والروّاد الأشداء، والنقباء الشجعان، الذين ساهموا بشكل فعّال في صنع النتيجة النهائية لذلك اليوم المشهود؟ وبالتأكيد، فإن محاربة وهزيمة أولئك المقاتلين أمثال ألكسندر أمير هيس، وستاديون، وبنيديك، أو شارل دي

ويندش ـ جزيتز[٣]، لهو أمر يدعو للزهو والفخار لكل من شارك فيه!

«إنه يبدو وكأن الريح تدفعنا إلى الأمام» ـ قالها جندي صغير بسيط بانفعال ليصور حيوية وحماس زملائه الذين كانوا يتدافعون معه في حومة القتال. «لقد كانت رائحة البارود وهدير المدافع ودوي الأبواق ـ كل ذلك يثيرك ويبعث فيك النشاط». وكان كل رجل في الواقع يقاتل وكأنما سُمعته الشخصية معرضة للخطر، وأن عليه أن يجعل النصر قضيته الخاصة.

كانت هناك حقاً حماسة وشجاعة غير عادية لدى ضباط الصف البواسل في الجيش الفرنسي. فقد أسقطوا العوائق من حسابهم فيلقون بأنفسهم وجندهم وراءهم نحو الأماكن المكشوفة أو الأشد خطراً كما لو كانوا يركضون للاحتفال بالعيد. وهنا يكمن دون شك بعض ما يتميز به الجيش الفرنسي بين جيوش الأمم الكبيرة الأخرى.

---

(٣) بالنسبة للجنرال فوري، نقتطف بضع كلمات جاءت بشأنه في كتاب العقيد إدموند فافر Edmond Favre «الجيش البروسي ومناورات كولونيا عام ١٨٦١» «دعانا الملك في ذلك اليوم للعشاء في قلعة بنراث Benrath بالقرب من دوسلدورف Dusseldorf. وقبل أن يجلس الملك إلى المائدة أخذ يدي الجنرال فوري والجنرال بومجارتن Paumgarten وخاطبهما ضاحكاً: والآن أنتما صديقان. إجلسا متجاورين وتحادثا. إن فوري هو قاهر مونتي بللو، وبومجارتن يقود القوات ضده، ولكنهما يستطيعان الآن أن يسأل كل منهما الآخر بشأن كافة تفاصيل المعركة. وإن نظرة واحدة إلى الابتسامة الصادقة التي تعلو وجه الجنرال النمساوي لتعطي دليلاً على زوال أي مرارة. أما بالنسبة للجنرال الفرنسي، فإننا جميعاً نعلم أنه ليس هناك ما يدعو لأن يحس بأي مرارة. هكذا هي الحرب، وهذه هي حياة الجندي. فربما يصبح هذان الجنرالان اللذان تربطهما في هذا الخريف مثل هذه الصداقة خصمين يحارب أحدهما الآخر مرة أخرى في العام القادم، ثم يتناولان العشاء معاً في مكان ما في العام الذي يليه.

تقهقرت قوات الامبراطور فرنسوا ـ جوزيف. وكان جيش الكونت ويمبفن هو أول من تلقى الأمر ببدء الانسحاب من قائده حتى قبل أن يحشد المارشال كانروبير كل قواته للمعركة. أما جيش الكونت شليك فقد اضطر إلى التخلي عن كافة المواقع التي كان النمساويون قد جعلوا منها سلسلة من الحصون القوية، وذلك رغم صمود الكونت ستاديون، نظراً لضعف المساندة التي تلقاها شليك من جانب المارشالين كلام ـ جلاس وزوبل باستثناء فرقة أمير هيس.

أظلمت السماء فجأة، وغطت الأفق سحب كثيفة، وزمجرت الريح بغضب فحملت في الفضاء فروع الأشجار التي تكسرت. وهطلت أمطار باردة دفعها الإعصار، بل إن سيلاً جارفاً قد اجتاح المقاتلين الذين هدّهم الجوع والإرهاق، بينما أعمتهم الزوابع ودوامات الغبار. فكان عليهم أن يصارعوا كذلك العوامل الجوية القاسية. وكان النمساويون يبادرون إلى الالتفاف حول نداءات ضباطهم رغم اشتداد وطأة الإعصار عليهم. لكن ضراوة القتال أخذت في التوقف في مكان تلو الآخر باقتراب الساعة الخامسة بسبب هطول الأمطار الجارفة والبَرَد ووميض البرق وقصف الرعد وحلول الظلمة التي أطبقت على ساحة المعركة.

أظهر رئيس أسرة هابسبرج Habsbourg هدوءاً ورباطة جأش رائعين طوال فترة القتال. وعندما تم الاستيلاء على كافريانا كان الامبراطور ومعه الكونت شليك ومساعده أمير ناسو Nassau يقفون عند كنيسة تحيط بها أشجار السرو على ربوة مجاورة يطلق عليها إسم لا مادونا ديللا بييفي La Madonna della Pieve. وعندما استسلم المركز النمساوي لم يكن لدى الجناح الأيسر للجيش أي أمل في اقتحام موقع الحلفاء، فتقرر الانسحاب الشامل، وأذعن الامبراطور في تلك اللحظة المهيبة لفكرة التوجه مع جزء من

مجلس أركان حربه إلى فولتا بينما ينسحب الأرشيدوقات مع الدوق الأعظم وريث توسكان إلى فاليجيو. وقد استولى الفزع على القوات الألمانية في كثير من المواقع. وانقلبت فكرة الانسحاب بالنسبة لبعض الفرق إلى هزيمة كاملة. ولم يتمكن الضباط الذين قاتلوا كالأسود من السيطرة على جنودهم الذين لم يجدي معهم التشجيع ولا الإساءة ولا حتى ضربات السيف. لقد كان هلعهم بالغاً، فكان هؤلاء الجند الذين قاتلوا بشجاعة طوال المعركة يقبلون الإهانة والضرب في سبيل أن يلوذوا بالفرار.

بلغ يأس امبراطور النمسا مبلغاً عظيماً بعد أن تصرف كبطل حقيقي طوال اليوم وهو يرى الرصاص والقنابل تمطر من حوله، فلم يستطع أن يمنع نفسه عن الكباء أمام هذه الكارثة. واستخفّه الألم فاندفع عبر الطرق في مواجهة المنهزمين ليبكتهم على تخاذلهم. وعاد الامبراطور إلى هدوئه بعد انفعالات هذا التوتر الملتهب ليتأمل في وجوم مسرح الدمار وقد سالت على وجنتيه قطرات كبيرة من الدمع، ووافق تحت إلحاح مرافقيه على الرحيل من فولتا إلى فاليجيو.

وألقى الضباط النمساويون المذعورون بأنفسهم في براثن الموت من شدة الغضب والقنوط دون أن يفرطوا في حياتهم بثمن بخس. فكثيرون منهم قتلوا أنفسهم تحت وطأة الهياج والحزن رافضين الحياة بعد تلك الهزيمة القاتلة، ولكن الغالبية العظمى منهم لم يعودوا إلى فرقهم إلا غارقين إما في دمائهم أو في دماء الأعداء. فلتقدم لبسالتهم الولاء الذي تستحقه.

وظل الامبراطور نابليون يظهر طوال اليوم في كل مكان يتطلب الموقف وجوده فيه، يرافقه المارشال فاين Vaillant ماجور جنرال الجيش، والجنرال مارتمبري Martimprey مساعده، والكونت روجيه Roguet، والكونت مونتي بللو Montebello، والجنرال فلوري Fleury، وأمير لا موسكوفا La Moskova، والعقيدان راي

Reille وروبير Robert، والحاشية العسكرية بأكملها، وسرية المائة حارس. لقد أدار الامبراطور المعركة باستمرار متجهاً إلى حيث الحاجة تقتضي التغلب على أصعب العقبات دون جزع من الخطر الذي كان يحدق به بصفة دائمة. وعلى جبل فينيل Fenile أصيب جواد البارون لاري Larrey جرّاح الامبراطور الخاص برصاصة أردته قتيلاً من تحته، كما أصيب كثير من أفراد سرية المائة حارس. وفي كافريانا أقام نابليون في بيت امبراطور النمسا الذي تم اعتقاله فيه في اليوم نفسه. ومن هناك قام نابليون بإبلاغ الإمبراطورة بنبأ انتصاره.

عسكر الجيش الفرنسي في المواقع التي احتلها في ذلك اليوم، وضربت قوات الحرس خيامها بين سولفرينو وكافريانا. واحتل الفيلقان الأول والثاني المرتفعات المحيطة بسولفرينو، بينما عسكر الفيلق الثالث في ريبيكو، والرابع في فولتا.

وظلت جويديتزولو في أيدي النمساويين حتى الساعة العاشرة مساء، عندما قام المارشال دي فيجل بتغطية انسحابهم في الجناح الأيسر، وانسحاب المارشال بنيديك في الجناح الأيمن. وظل بنيديك مسيطراً على بوتزولنجو حتى ساعة متأخرة من الليل لحماية عملية انسحاب الكونت ستاديون وكلام ـ جلاس، التي تصرفت من خلالها ألوية كولروجال وفرقة رايشاخ Reischach بصورة مشرفة للغاية. وتوجهت ألوية براندنشتاين Brandenstein ووُسين Wussin بقيادة أمير هيس إلى فولتا حيث ساعدت على عبور المدفعية لنهر مينشيو عند بورجيتو Borghetto وفاليجيو.

تم تجميع الجنود النمساويين الضالين وتوصيلهم إلى فاليجيو. وكانت الطرق مغطاة بأمتعة الفيالق المختلفة أو معدات جسور العبور واحتياطيات المدفعية، والكل يتدافعون ويتعجلون الوصول إلى مضيق فاليجيو. وقد أمكن بفضل سرعة تركيب الجسور النقالة

إنقاذ معدات القافلة. وفي غضون ذلك بدأت أولى قوافل الجنود ذوي الإصابات الخفيفة في دخول فيلا فرنكا، تليها قوافل الجنود ذوي الإصابات الخطيرة. كانت الحشود غفيرة طوال تلك الليلة الحزينة، والأطباء يضمدون جراح المصابين، ويشددونهم ببعض الأطعمة، ثم يرسلونهم في قطارات السكك الحديدية إلى فيرونا حيث كان الزحام مخيفاً. ورغم أن الجيش النمساوي بذل كل ما في وسعه أثناء الانسحاب لالتقاط الجرحى ونقلهم في شاحناته أو في عربات الطوارئ، إلا أنه كم من جرحى تعساء قد تُركوا ممددين على الأرض التي تشربت بدمائهم!

كم من ضابط أو جندي فرنسي طفق يبحث في عصر ذلك اليوم عن زميل له أو مواطن أو صديق هنا أو هناك بعد أن امتدت ظلال الغسق على ساحة المجزرة المترامية الأطراف، فإذا عثر على مقاتل يعرفه انحنى عليه محاولاً إنعاشه، أو شدّ على يده، أو أوقف نزيفه، أو ربط بمنديله طرفه المكسور، ولكن دون أن يستطيع توفير شئ من الماء للجريح المسكين. كم من الدمع الصامت قد سال من المآقي في تلك الليلة الكئيبة التي فقدت فيها كل معاني الكرامة الزائفة واحترام الإنسان!

وأقيمت أثناء الاشتباكات مستشفيات نقالة في المزارع والبيوت أو الكنائس والأديرة القريبة، وحتى في العراء تحت ظل بعض الأشجار. هنا يتلقى بعض الضباط الذين أصيبوا في فترة الصباح شيئاً من العلاج، يليهم ضباط الصف ثم الجنود. ويُظهر الجراحون الفرنسيون تفانياً لا يكل. فكثيرون منهم يضنون على أنفسهم بلحظات من الراحة خلال أكثر من أربع وعشرين ساعة متصلة. وفي مستشفى يديره الدكتور ميري Méry كبير أطباء الحرس سقط طبيبان مغشياً عليهما من شدة الإعياء بعد إجراء عمليات بتر عديدة وتضميد للجراح. وفي مستشفى نقال آخر نرى زميلاً لهما وقد

الهجوم على سولفرينو.

«وترتمي الطوابير المتراصة الواحد فوق الآخر باندفاع سيل جارف يطيح بكل ما يعترض سبيله...» (الصفحة ١٧).

أنهكه التعب فاستند بذراعه على اثنين من الجنود حتى يستطيع مواصلة أداء واجبه.

وعند نشوب معركة كان يُرفع علم أسود على مكان مرتفع ليشير إلى موقع تجميع الجرحى أو مراكز الإسعاف الخاصة بالفرق المشتركة في القتال. وكان هناك اتفاق ضمني متبادل بعدم إطلاق النار في اتجاه هذه المواقع. ومع ذلك فقد كانت القنابل تصل إليها أحياناً دون أن يفلت من الخطر إداريون أو ممرضون، أو حتى شاحنات الخبز أو النبيذ أو اللحم المخصص لعمل الحساء للمرضى. وقد كان المصابون الذين يقوون على السير يذهبون بأنفسهم إلى المستشفيات، وفيما عدا ذلك كان الجرحى يُنقلون بواسطة النقالات أو المحافّ لشدة ضعفهم بسبب خروج الدم منهم وعدم توافر وسائل الإسعاف العاجل.

ولم يمكن للجنود أو الضباط أو حتى الجنرالات تحديد النتائج النهائية للمعارك بدقة بطول تلك الجبهة العريضة، الذي بلغ أكثر من عشرين كيلومتراً، وبعد تلك الاضطرابات التي سادت مراحل القتال. كما كان يصعب عليهم حتى في أثناء الاشتباك نفسه معرفة ما يجرى حولهم أو تقديره عن يقين. وتَسبّب الارتباكُ أو الافتقارُ إلى الأوامر القيادية الدقيقة المحددة في مضاعفة هذا الجهل في صفوف الجيش النمساوي.

تلألأت المرتفعات التي تمتد بين كاستليوني وفولتا بالآلاف من ألسنة النيران التي تعاظمت باحتراق مخلفات عربات الذخيرة النمساوية وفروع الأشجار التي كسرتها القذائف والأعاصير. وكان الجند يجففون ملابسهم المبللة على وهج تلك النيران ويتخذون من الحجارة وسائد ومن الأرض فراشاً لهم. ولم يحصل الأصحاء على قسط من الراحة حتى أصبح عليهم أن يجدّوا في البحث عن الماء

الأخضر والأسود بعد أن تلوّى في تشنجات عنيفة حتى الصباح فبقيت أظافر يديه المتقلصتين بعد موته ملتوية إلى الخلف.

كانت تقطع سكون الليل تأوهات وتنهدات مكتومة مليئة بالجزع والمعاناة، وأصوات تمزق أوتار القلوب تلح في طلب النجدة. من ذا الذي يستطيع أن يعيد البتة وصف سكرات الموت التي شوهدت في تلك الليلة الرهيبة!

وطلعت شمس يوم ٢٥ على واحد من أشد المشاهد التي يمكن أن نتصورها هولاً. فقد كانت ساحة القتال على اتساعها مغطاة بجثث الرجال والجياد. وتناثرت أجساد الموتى على الطرق وفي الحفَر والوديان والغابات والحقول. وكانت مداخل سولفرينو مكتظة تماماً بالقتلى. دُمّرت الحقول فرقدت أعواد القمح والذرة، وتحطمت الوشائع، وخربت البساتين. ويقابل المرء بين الفينة والفينة مستنقعات صنعتها الدماء. أقفرت القرى وبانت عليها آثار التدمير من رشقات البنادق والشهاب والقذائف والقنابل وطلقات المدافع. تزعزت الجدران وتخّرمت بفعل القنابل التي فتحت فيها ثغرات كبيرة. وتثقبت البيوت وتصدعت وتخّربت. وبدأ سكانها الذين قضوا نحو عشرين ساعة مختبئين في أقبائها بلا إضاءة ولا طعام يخرجون وقد بدا عليهم الذهول من هول ما اعتراهم من الفزع الطويل.

وفي ضواحي سولفرينو. وبالأخص في مقابر القرية، غصت الأرض بالبنادق والأجربة وجعاب الذخيرة والقصعات والخَوذ والقلانس العسكرية وقبعات الشرطة وحمائل السيوف وغيرها من كل ما يتعلق بآلات الحرب وحتى بقايا من ملابس ملطخة بالدماء وأكوام من الأسلحة التي أصابها التدمير.

إن الجرحى البؤساء الذين تم جمعهم طوال اليوم خائرو القوى، تشوب وجوههم صُفرة الموت، تبدو على بعضهم البلاهة في

الأخضر والأسود بعد أن تلوّى في تشنجات عنيفة حتى الصباح فبقيت أظافر يديه المتقلصتين بعد موته ملتوية إلى الخلف.

كانت تقطع سكون الليل تأوهات وتنهدات مكتومة مليئة بالجزع والمعاناة، وأصوات تمزق أوتار القلوب تلح في طلب النجدة. من ذا الذي يستطيع أن يعيد البتة وصف سكرات الموت التي شوهدت في تلك الليلة الرهيبة!

وطلعت شمس يوم ٢٥ على واحد من أشد المشاهد التي يمكن أن نتصورها هولاً. فقد كانت ساحة القتال على اتساعها مغطاة بجثث الرجال والجياد. وتناثرت أجساد الموتى على الطرق وفي الحفَر والوديان والغابات والحقول. وكانت مداخل سولفرينو مكتظة تماماً بالقتلى. دُمّرت الحقول فرقدت أعواد القمح والذرة، وتحطمت الوشائع، وخربت البساتين. ويقابل المرء بين الفينة والفينة مستنقعات صنعتها الدماء. أقفرت القرى وبانت عليها آثار التدمير من رشقات البنادق والشهاب والقذائف والقنابل وطلقات المدافع. تزعزت الجدران وتخّرمت بفعل القنابل التي فتحت فيها ثغرات كبيرة. وتثقبت البيوت وتصدعت وتخّربت. وبدأ سكانها الذين قضوا نحو عشرين ساعة مختبئين في أقبائها بلا إضاءة ولا طعام يخرجون وقد بدا عليهم الذهول من هول ما اعتراهم من الفزع الطويل.

وفي ضواحي سولفرينو. وبالأخص في مقابر القرية، غصت الأرض بالبنادق والأجربة وجعاب الذخيرة والقصعات والخَوذ والقلانس العسكرية وقبعات الشرطة وحمائل السيوف وغيرها من كل ما يتعلق بآلات الحرب وحتى بقايا من ملابس ملطخة بالدماء وأكوام من الأسلحة التي أصابها التدمير.

إن الجرحى البؤساء الذين تم جمعهم طوال اليوم خائرو القوى، تشوب وجوههم صُفرة الموت، تبدو على بعضهم البلاهة في

نظراتهم وكأنهم لا يفهمون ما يقال لهم، وبوجه خاص أولئك الذين تشوهوا بشدة، فهم يعلّقون عليك نظرات زائغة. لكن ما يبدو عليهم من وَهَن لا يعفيهم من إحساسهم بالآلام. والبعض الآخر يبدو عليهم القلق والانفعال لإصابتهم بصدمة عصبية ورعشة متشنجة. وهناك نرى مصابين ذوي جروح فاغرة وقد بدأ الالتهاب يدبّ وينمو فيها فيحيلهم الألم إلى مجانين يتلوّون منشدين الموت ووجوهم متقلصة في عناق أخير مع سكرات الموت.

ونجد في موضع آخر أولئك المنكودي الحظ الذين لم تقتصر نكبتهم على إصابة برصاصة أو شظية طرحتهم أرضاً. فجاءت المدافع لتدوس بعجلاتها فوق أجسادهم فتسحق أذرعهم أو سيقانهم. إن طلقات الرصاص الأسطوانية تفجّر العظام في كل اتجاه مما يجعل الإصابات الناتجة عنها بالغة الخطورة. وتُحدث القذائف والرصاص المخروطي كسوراً تسبب آلاماً مفرطة وإصابات داخلية مهولة. وداخل الجروح تكمن شظايا من كل الأنواع، أجزاء من العظام، وقطع صغيرة من الملابس والآلات والأحذية، والطين والرصاص مما يزيد من تفاقم الجرح وهياجه، ويضاعف من معاناة المريض.

إن من يجوب المسرح الفسيح لمعارك الأمس يلتقي في كل خطوة ووسط تلك الفوضى العارمة بقنوط بالغ وبؤس من كل ضرب.

أُلقت بعض الفرق أجربتها على الأرض، وفُقدت محتويات الأجربة في كتائب كثيرة. فقد استولى بعض الفلاحين اللومبارديين والقناصة الجزائريين على كل ما وقع تحت أيديهم. وهكذا نجد المشاة من فرقة الحرس وقد تركوا أجربتهم بالقرب من كاستليوني لتسهيل السير عندما توجهوا لمساندة فرقة فوري في هجومها على سولفرينو. وحاربوا حتى المساء، ثم ذهبوا إلى ضواحي كافريانا لقضاء الليل. وفي صباح اليوم التالي عادوا مبكرين لأخذ أجربتهم، وإذا بمحتوياتها قد نُهبت جميعها أثناء الليل. وكانت الخسارة

جسيمة بالنسبة لهؤلاء المقاتلين البؤساء الذين أصبحت ملابسهم الداخلية وسُتَرهم قذرة وملطخة، أو استهلكت وتمزقت، وهاهم قد تجردوا من أمتعتهم، وربما من مدّخراتهم المتواضعة التي تمثل كل ثروتهم الضيئلة، وكذلك من بعض الأشياء ذات القيمة العاطفية التي تُذكّرهم بالأسرة والوطن، والتي تكون قد أهدتها إليهم أمهاتهم أو أخواتهم أو خطيباتهم.

قام اللصوص في أماكن كثيرة بنهب الموتى، ولم يحترموا الجرحى التعساء الذين لا زالوا على قيد الحياة. كان فلاحو لومبارديا ولعين بوجه خاص بالأحذية التي انتزعوها بفظاظة من أقدام الجثث المتورمة.

وتختلط بهذه المشاهد الرهيبة مآس تهز المشاعر ووقائع تخفق لها القلوب. فهنا نرى الجنرال الطاعن في السن لوبريتون Le Breton يتخبط على غير هدى باحثاً عن صهره الجنرال دواي. لقد ترك ابنته زوجة الجنرال دواي على مسافة عدة فراسخ في بلبلة وقلق عظيمين. وهناك جثة المقدم دي نوشيز de Neuchèze وقد لقي مصرعه برصاصة في قلبه بينما كان يجري لتلقي الأوامر من قائده العقيد فوبير دي جنليس Vaubert de Genlis، الذي انقلب من فوق ظهر جواده مصاباً بجرح خطير. وعلى مقربة نجد العقيد دي جنليس نفسه تهزه حمى شديدة، وقد بدأت تقدم له الإسعافات الأولية، والملازم ثان دي سيلف دي ساران de Selve de Sarran من المدفعية الخيالة، الذي تخّرج منذ شهر واحد من مدرسة سان ـ سير Saint-Cyr الحربية، تُجرى له عملية بتر لذراعه الأيمن. وها هو رقيب أول مسكين ينتمي إلى قناصة دي فينسين de Vincennes، اخترق الرصاص ساقيه، وقد رأيته للمرة الثانية في أحد مستشفيات برتشيا، كما وجدته مرة أخرى في القطار الذي نقلني من ميلانو إلى تورينو Turin، ثم مات فيما بعد متأثراً بجراحه أثناء عبور جبل

مونت سينيس Mont-Cenis. وذاك الملازم أول دي جيزول وقد أنهضوه بعد أن ظل مغشياً عليه فترة ظنوا فيها أنه توفي في المكان الذي سقط فيه محتضناً بيرقه. وبالقرب من هذا المكان، وفي وسط مجموعة من الرماحين والقناصة النمساويين والتركويين turcos والزواويين zouaves، ترقد جثة ضابط مسلم في زيه الشرقي الأنيق قائد القناصة الجزائريين الملازم العربي بن الأخضر. وكانت رأسه ذات الوجه البرونزي الذي لفحته الشمس مستلقية على صدر ممزق لنقيب إيليري (بلقاني) ذي سترة لا زالت ناصعة البياض. كانت تلك الأكوام من الحطام البشري تفوح برائحة الدم النفاذة. ولفظ العقيد دي مالفيل الذي جرح في موقف بطولي في كازانوفا النفس الأخير، ودفن الرائد دي بونجيبو Pongibaud الذي فاضت روحه أثناء الليل، كما وُجدت جثة الكونت الشاب دي سان باير de Saint-Paër الذي حصل قبل أسبوع مضى على رتبة قائد كتيبة. وهناك نجد الملازم ثان الشجاع فورنييه Fournier من مشاة الحرس وقد أصيب إصابة خطيرة في اليوم السابق، واليوم يسدل الستار على حياته العسكرية بالوفاة في سن العشرين. لقد تطوع للخدمة في سن العاشرة. وأصبح عريفاً في الحادية عشرة، وملازماً ثانياً في السادسة عشرة. وشارك في حملتين أفريقيتين، وجرح في سباستوبول Sébastopol أثناء حرب القرم[٤] Crimée. وكان لابد

(٤) الملازم ثان جون فرنسوا فورنييه ـ ولد في ميتز Metz ١٨٣٩. سجل نفسه كمتطوع في الفرقة الأجنبية في ٤ يونيو/حزيران ١٨٤٩، وذهب إلى الجزائر. حصل على لقب عريف في ٦ أبريل/نيسان ١٨٥٠، وعلى رقيب في أول أبريل/نيسان ١٨٥١، وأصبح رقيب محاسبة المعدات في ١١ يوليو/تموز ١٨٥٢، ورقيباً أول في ١٨٥٤. اشترك في حملة القرم خلال عامي ١٨٥٥، ١٨٥٦ برتبة مساعد، وحصل على رتبة ملازم ثان في ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٥٥ في الفرقة ٤٢، ثم نقل إلى فرقة المشاة الثانية للحرس الامبراطوري في ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٥٦ بنفس الرتبة. وقد أصيب إصابة قاتلة في ٢٤ يونيو ١٨٥٩ وتوفي في اليوم التالي.

من أن يخبو في سولفرينو نجم مجيد من نجوم الامبراطورية الفرنسية الأولى يتمثل في شخص المقدم جونو دوق أبرانتي Junot, duc d'Abrantès، رئيس أركان حرب القائد السابق للقسطنطينية الجنرال الباسل دي فيلي de Failly.

تزايد الشعور بالافتقار إلى الماء، فقد جفت القنوات، ولم تجد أغلبية الجنود ما يطفئ ظمأهم سوى المياه الآسنة الملوثة. وحيثما وُجد ينبوع ماء كان يحيط به خفراء مدججون بالسلاح للاحتفاظ بمائه للمرضى. وبالقرب من كافريانا نجد مستنقعاً يستقي منه ـ رغم تعفنه ـ عشرون ألفاً من جياد المدفعية وسلاح الفرسان على مدى يومين كاملين. وكانت الجياد المصابة التي فقدت فرسانها، وتاهت طوال الليل تزحف تجاه مجموعات نظرائها وكأنها تطلب عوناً، وكانت هذه الجياد المصابة تُضْرَب بالنار لتخليصها من شقائها. حلّ أحد هذه الجياد العظيمة مُسرَّجاً في وسط فصيلة فرنسية، وكانت حقيبة السرج التي يحملها سليمة ومثبتة في السرج. وبفحصها وُجدت بها خطابات وأشياء دلت على أنها تخص أمير ايزمبورج الشجاع. ودار البحث عن الأمير بين جثث الموتى فوجد جريحاً ومغشياً عليه بسبب نزف الدم. وقد سمحت له الإسعافات التي أجراها له بسخاء على الفور الجراحون الفرنسيون بالبقاء حياً ليعود فيما بعد إلى أسرته التي حرمت من أخباره، واعتبرته في عداد الأموات ولبست عليه الحداد لعدة أسابيع.

وتعبّر وجوه بعض الجنود الموتى عن الهدوء، وهؤلاء هم الذين ماتوا للتوّ فور إصابتهم. ولكن عذابات الصراع مع الموت شوّهت عدداً كبيراً، فالأطراف متصلبة، والأجسام تغطيها بقع داكنة، والأيادي قد تجمدت وهي تنقب الأرض، والأعين تحملق بإفراط، والشوارب منتفشة، والوجوه تعلوها ضحكة كئيبة وعصبية تكشف عن الأسنان المتكزّرة.

انقضت ثلاثة أيام وثلاث ليال في دفن الجثث التي تخلفت في ميدان القتال[٥]. ولكن كانت هناك أجساد أخرى كثيرة في هذه المساحة الكبيرة مختفية في الحفر والأخاديد أو متوارية في الغابات أو في طيات الأرض الوعرة. ولم يتبين وجود تلك الأجساد إلا متأخراً، وكانت تنبعث منها، ومن الجياد التي نفقت، روائح كريهة.

وكلّف الجيش الفرنسي عدداً من الجنود من كل فصيلة للتعرف على الموتى ودفنهم. وكان أفراد كل مجموعة يجمعون عادة زملاءهم في الفرقة، فيسجلون رقم الفرقة الموضح على متاع القتيل، ويساعدهم في تلك المهمة الشاقة فلاحو لومبارديا نظير أجر يتقاضوه. وتوضع الجثة والملابس بعد التسجيل في مقبرة عامة. إن السرعة التي كان يجرى بها هذا العمل المضني تجعلنا نعتقد بكل أسف أن أكثر من مقاتل قد دفن حياً مع الموتى، وذلك بسبب التهاون أو الإهمال الشديد من جانب بعض الفلاحين. لقد كانت الأوسمة والأموال والساعات والرسائل والأوراق التي توجد مع جثث الضباط ترسل فيما بعد إلى أسرهم. ولكن لم يكن يتيسر على الدوام تنفيذ تلك المهمة بالكامل مع هذا العدد الضخم من الجثث الواجب دفنها.

هاك ابن يعشقه والده، وقد ربته أمه سنين كثيرة، واعتنت به فكانت تجزع لأية وعكة تلم به. وهذا ضابط لامع، عزيز على أسرته، ترك في بيته زوجة وأولاداً. وذلك جندي شاب ودّع خطيبته، وكما هو

---

(٥) استمر التقاط جثث الجنود قتلى من الجيشين في ميدان المعركة على مدى ثلاثة أسابيع أعقبت يوم ٢٤ يونيو ١٨٥٩. وقد قيل خطأً أن يوم ٢٥ يونيو كان كافياً للعثور على جميع الجرحى الفرنسيين والنمساويين. إن ذلك غير صحيح على الإطلاق.

من أن يخبو في سولفرينو نجم مجيد من نجوم الامبراطورية الفرنسية الأولى يتمثل في شخص المقدم جونو دوق أبرانتي Junot, duc d'Abrantès، رئيس أركان حرب القائد السابق للقسطنطينية الجنرال الباسل دي فيلي de Failly.

تزايد الشعور بالافتقار إلى الماء، فقد جفت القنوات، ولم تجد أغلبية الجنود ما يطفئ ظمأهم سوى المياه الآسنة الملوثة. وحيثما وُجد ينبوع ماء كان يحيط به خفراء مدججون بالسلاح للاحتفاظ بمائه للمرضى. وبالقرب من كافريانا نجد مستنقعاً يستقي منه ـ رغم تعفنه ـ عشرون ألفاً من جياد المدفعية وسلاح الفرسان على مدى يومين كاملين. وكانت الجياد المصابة التي فقدت فرسانها، وتاهت طوال الليل تزحف تجاه مجموعات نظرائها وكأنها تطلب عوناً، وكانت هذه الجياد المصابة تُضْرَب بالنار لتخليصها من شقائها. حلّ أحد هذه الجياد العظيمة مُسرَّجاً في وسط فصيلة فرنسية، وكانت حقيبة السرج التي يحملها سليمة ومثبتة في السرج. وبفحصها وُجدت بها خطابات وأشياء دلت على أنها تخص أمير ايزمبورج الشجاع. ودار البحث عن الأمير بين جثث الموتى فوجد جريحاً ومغشياً عليه بسبب نزف الدم. وقد سمحت له الإسعافات التي أجراها له بسخاء على الفور الجراحون الفرنسيون بالبقاء حياً ليعود فيما بعد إلى أسرته التي حرمت من أخباره، واعتبرته في عداد الأموات ولبست عليه الحداد لعدة أسابيع.

وتعبّر وجوه بعض الجنود الموتى عن الهدوء، وهؤلاء هم الذين ماتوا للتوّ فور إصابتهم. ولكن عذابات الصراع مع الموت شوّهت عدداً كبيراً، فالأطراف متصلبة، والأجسام تغطيها بقع داكنة، والأيادي قد تجمدت وهي تنقب الأرض، والأعين تحملق بإفراط، والشوارب منتفشة، والوجوه تعلوها ضحكة كئيبة وعصبية تكشف عن الأسنان المتكزّرة.

خاص، وكأنهم شياطين بلا رحمة، حتى أن بعضهم كان يسأل بجدّية عندما وصلوا إلى برتشيا وشاهدوا بعض الأشجار في متنزه المدينة عما إذا كانوا سيعلقون على تلك الأشجار. وكان كثير منهم يقابلون العناية السخية من جانب الجنود الفرنسيين بأحمق الأساليب بسبب ضلالتهم وجهلهم. ففي صباح يوم السبت نرى أحد رماة القنابل الفرنسيين وقد وقع بصره في ميدان المعركة على نمساوي رقد ممدداً على الأرض في حالة جعلته يرثي له، فدنى منه ومعه وعاء به ماء، وقدم له ليشرب، وإذا بالنمساوي لا يصدق هذا العطف الشديد فيأخذ بندقيته الملقاة إلى جانبه ليضرب الفرنسي بأخمصها بكل القوة التي تبقت له فأصيب كعب وساق ذلك الجندي الرحيم برضوض. كما أن أحد رماة القنابل من فرقة الحرس الفرنسي أراد أن يلتقط جندياً نمساوياً آخر مشوهاً للغاية، فإذا بالأخير يلتقط مسدساً كان بجواره، ويطلق رصاصة مباشرة على الجندي الفرنسي الذي هبّ لنجدته[٦].

وقال لي أحد الضباط النمساويين: «لا تدهشك فظاظة وخشونة بعض قواتنا، فإن لدينا بعض المتوحشين من أقصى المناطق النائية في الامبراطورية وخلاصة القول إن لدينا همجيين حقيقيين في جيشنا».

(٦) فوجئ أحد الحراس السردينيين، وكان يرابط في مخفر أمامي في مارينيان Marignan، بفصيلة جنود نمساويين يقلعون عينيه ليعلموه ـ على حد قولهم ـ كيف يكون أقوى ملاحظة فيما بعد. كما سقط أحد جنود المشاة الإيطاليين في قبضة النمساويين فقطعوا أصابعه وأطلقوا سراحه قائلين له بالإيطالية: «إذهب واحصل على معاش!». دعنا نأمل أنه لم ترتكب في الحرب الإيطالية أعمال من هذا النوع سوى هاتين الحادثتين الواقعيتين.

أراد بعض الجنود الفرنسيين بدورهم أن يسيئوا بالمثل معاملة بعض الجنود الأسرى، وقد اختلط عليهم الأمر فاعتبروهم كرواتيين، وكانوا يسمونهم «ذوي السراويل اللاصقة» ويقولون بحنق أنهم كانوا يجهزون دائماً على الجرحى. ولكن الأسرى كانوا في الحقيقة مجريين يرتدون زيّاً شبيهاً بزي الكرواتيين، ولم تكن لهم مثل قسوتهم. ونجحتُ بسرعة في سحب هؤلاء المجريين المرتجفين من بين أيديهم، وذلك عندما شرحتُ للجنود الفرنسيين هذا الفرق. ولم يُظهر الجنود الفرنسيون، باستثناء حالات شاذة، سوى مشاعر العطف نحو الأسرى. وهكذا نرى القادة الفرنسيين يُسدْون فضلاً لضباط نمساويين فيسمحون لهم بالاحتفاظ بسيوفهم القصيرة أو المقوّسة، كما كان يقدَّم لهم الطعام ذاته الذي يقدّم للضباط الفرنسيين، ويُعالَج جرحاهم على يد الأطباء أنفسهم، وذهب الأمر إلى حد السماح لأحدهم بالعودة للبحث عن أمتعته. وتقاسم كثيرون من الجنود الفرنسيين طعامهم بأخوّة صادقة مع الأسرى الذين يتضورون جوعاً. وكان آخرون يحملون فوق أكتافهم جرحى جيش الأعداء لنقلهم إلى مراكز الإسعاف، وهناك تقدَّم لهم كافة الخدمات بتفانٍ رائع وشفقة عميقة. وقدّم ضباط فرنسيون بأنفسهم العناية لجنود نمساويين، وربط أحدهم بمنديله رأس جندي تيرولي مشجوجة، إذ لم يكن له ما يغطيها به سوى قطعة قماش قديمة مهلهلة وملطخة بالدماء.

وإذا أردنا لَذكَرنا عدداً لا يحصى من الأعمال المتفرقة والمواقف التي تبرز القيم الكبيرة للجيش الفرنسي وبطولة ضباطه وجنوده، ولكننا

لا ننسى أيضاً إنسانية الجندي البسيط[٧] وطيبته، وعطفه على عدوه المهزوم أو الأسير، وهي صفات توازي بكل تأكيد قيمة بسالته وشجاعته. فمن المعروف أن المقاتلين الممتازين بالفعل يتصفون بالوداعة والأدب ككل العظماء الحقيقيين. لذا فإن الضابط الفرنسي عادة لا يكون ودوداً فحسب. ولكنه يتحلى بالكرم والبساطة والشهامة أيضاً. إنه يستحق ذلك الثناء الذي أسبغه الجنرال دي سالم de Salm الذي وقع أسيراً في يد الفرنسيين في موقعة نرويند Nerwinde فعامله المارشال دي لوكسمبرج de Luxembourg بكرم فائق، فقال للفارس دي روزل du Rozel: «من أي أمة أنتم!

---

(٧) أظهر الجنود الفرنسيون كل احترام لكل ممتلكات السكان المحليين. ويستحق ما كانوا يتمتعون به من روح نظامية وأدب وعفة وسلوك طيب أثناء الحرب الإيطالية أعلى تقدير.

ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد بعض النداءات التي أعلنها المارشال ريجنو دي سان جون دانجلي أو الجنرال تروشو على سبيل المثال، إذ تعتبر هذه الإعلانات أنواط مجد حقيقية على صدر أولئك الذين وجهوها إلى جنودهم. فقد أعلن الجنرال تروشو في نداء له من الإسكندرية بتاريخ ٤ مايو ١٨٥٩ وجهه إلى جميع سرايا فرقته المجتمعة بأسلحتها: «إننا نبدأ حملة نواجه فيها بكل همة أصعب الاختبارات التي بدأت بالفعل بالنسبة لنا. وسنكون فيها نظاميين، نلتزم بالتعليمات التي لن ألين في تنفيذها. وفي يوم المعركة لن نسمح لشجاع أن يكون أشجع منا. ولن ننسى أن السكان الوطنيين حلفاء لنا، وسنحترم تقاليدهم وممتلكاتهم وأشخاصهم. وسنحارب بأسلوب إنساني متحضر. فإذا فعلنا ذلك أصبحت جهودنا مشرفة يباركها الله. وإني أعتبر أن رتبتي كقائد للفرقة الثانية هي أعظم لقب في حياتي».

وفي ١٨ مايو/أيار ١٨٥٩ وجه المارشال ريجنو دي سان جون دانجلي الكلمات التالية إلى الحرس الامبراطوري في مارينجو Marengo: «أيها الجنود ـ جنود الحرس. ستضربون للجيوش مثلاً في الشجاعة في المخاطر، والنظام والانضباط في الطوابير، والهدوء والاعتدال في الدولة التي نذهب إليها. إن تذكركم لأسركم سيجعلكم تتعاطفون مع السكان وتحترمون الممتلكات. وتأكدوا أن النصر سيكون حليفكم...»

إنكم تقاتلون كالأسود، ومتى دحرتم عدوكم تعاملونه وكأنه أعز أصدقائكم!».

واصلت إدارة الإمداد والتموين جمع الجرحى ونقلهم، سواء تم أو لم يتم تضميد جراحهم، إلى المستشفيات الميدانية على نقّالات أو مقاعد مثبتة على سروج البغال. ومن هناك يتوجهون إلى القرى والبلدان الأقرب إلى المكان الذي أصيبوا فيه أو الذي تم العثور عليهم فيه. لقد تغير كل شئ في تلك الضياع والكنائس والأديرة والبيوت والأماكن العامة والمتنزهات والشوارع والممرات وتحولت كلها إلى مستشفيات مؤقتة. وتجمعت أعداد ضخمة من الجرحى في كربينيدولو Carpenedolo، وكاستل جوفريدو، وميدولي، وجويديتزولو، وفولتا، وفي جميع المناطق المحيطة. لكن أكبر عدد نُقل إلى كاستليوني إلى حيث استطاع المصابون الأقل عجزاً الزحف بأنفسهم.

ها هو الموكب الممتد لعربات إدارة الإمداد المحملة بالجنود وضباط الصف وحتى الضباط من كل الرتب مختلطين معاً. ها هم الفُرسان وجنود المشاة والمدفعية ينزفون، منهكين من التعب، وممزقين يغطيهم التراب. ثم تأتي البغال تهرول، وتنتزع في سرعتها في كل لحظة صرخات حادة من الجرحى البؤساء الذين تحملهم. ها هو أحدهم وله ساق مكسورة تكاد تنفصل عن جسمه، تضيف كل هزة من هزات العربة آلاماً جديدة إلى آلامه. وهذا آخر يحمل ذراعه المكسور على ذراعه السليم ويحميه به. وهذا عريف اخترقت ذراعه عصا حديدة من إحدى قذائف كونجريف، فنزع العصا بنفسه ثم استخدمها للاتكاء عليها في سيره حتى وصل إلى كاستليوني. وكثيرون ماتوا في الطريق، وتركت أجسادهم على جانب الطريق لحين العودة لدفنهم فيما بعد.

إنكم تقاتلون كالأسود، ومتى دحرتم عدوكم تعاملونه وكأنه أعز أصدقائكم!».

واصلت إدارة الإمداد والتموين جمع الجرحى ونقلهم، سواء تم أو لم يتم تضميد جراحهم، إلى المستشفيات الميدانية على نقّالات أو مقاعد مثبتة على سروج البغال. ومن هناك يتوجهون إلى القرى والبلدان الأقرب إلى المكان الذي أصيبوا فيه أو الذي تم العثور عليهم فيه. لقد تغير كل شئ في تلك الضياع والكنائس والأديرة والبيوت والأماكن العامة والمتنزهات والشوارع والممرات وتحولت كلها إلى مستشفيات مؤقتة. وتجمعت أعداد ضخمة من الجرحى في كربينيدولو Carpenedolo، وكاستل جوفريدو، وميدولي، وجويديتزولو، وفولتا، وفي جميع المناطق المحيطة. لكن أكبر عدد نُقل إلى كاستليوني إلى حيث استطاع المصابون الأقل عجزاً الزحف بأنفسهم.

ها هو الموكب الممتد لعربات إدارة الإمداد المحملة بالجنود وضباط الصف وحتى الضباط من كل الرتب مختلطين معاً. ها هم الفُرسان وجنود المشاة والمدفعية ينزفون، منهكين من التعب، وممزقين يغطيهم التراب. ثم تأتي البغال تهرول، وتنتزع في سرعتها في كل لحظة صرخات حادة من الجرحى البؤساء الذين تحملهم. ها هو أحدهم وله ساق مكسورة تكاد تنفصل عن جسمه، تضيف كل هزة من هزات العربة آلاماً جديدة إلى آلامه. وهذا آخر يحمل ذراعه المكسور على ذراعه السليم ويحميه به. وهذا عريف اخترقت ذراعه عصا حديدة من إحدى قذائف كونجريف، فنزع العصا بنفسه ثم استخدمها للاتكاء عليها في سيره حتى وصل إلى كاستليوني. وكثيرون ماتوا في الطريق، وتركت أجسادهم على جانب الطريق لحين العودة لدفنهم فيما بعد.

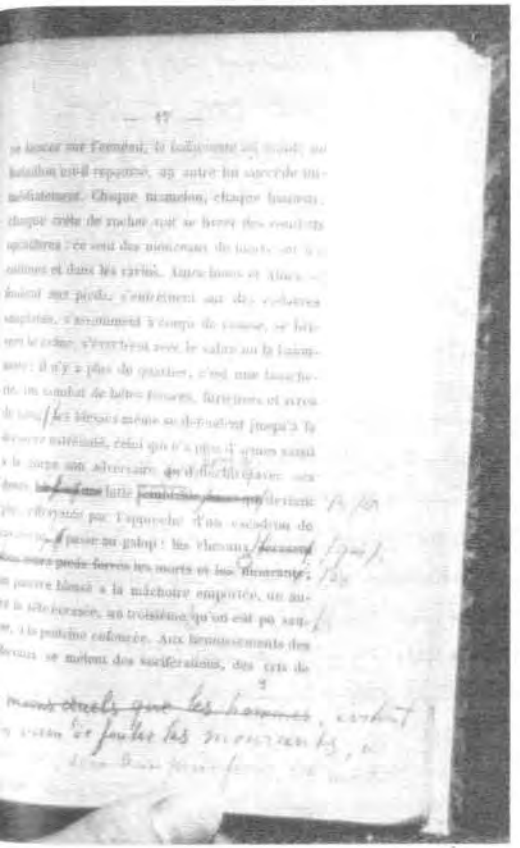

نص الطبعة الثالثة، وعليها تصحيحات هنري دونان.

لقحو «تذكار سولفرينو»، الذي طبع لأول مرة في جنيف في عام ١٨٦٢، نجاحًا مدويا في جميع أنحاء العالم. وترجم إلى أكثر من ١٧ لغة. إن دونان لم يقتصر على وصف سير المعركة؛ ولكنه شرح نكبة الجنود الجرحى الذين تركوا للألم والمعاناة، وعملية الإغاثة التي بدأها لمساعدتهم. كما اقترح إنشاء ما ظهر فيما بعد باسم الصليب الأحمر والهلال الأحمر.

الذين يفدون في آن واحد من جميع الجهات وتقيهم من حرارة الشمس الشديدة. ولم تتخلف البيوت الخاصة هي الأخرى عن استقبال الجرحى، فأوى الملاك الموسرون الضباط والجنود، وكانوا يبادرون بتقديم المسكنات الخفيفة التي كانت في متناول أيديهم. وكان منهم من يجري في الشوارع مذعوراً يبحث عن طبيب لضيوفه، وآخرون يذهبون ويجيئون في المدينة والحزن بادياً على وجوههم طالبين بإلحاح نقل الجثث الموجودة لديهم، والتي لا يعرفون وسيلة للتصرف فيها. ونُقل إلى كاستيلوني الجنرالات لادميرو، وديو، وأوجي، والعقداء بروتا Broutta، وبرنكور، وغيرهم من كبار الضباط الذين قام على رعايتهم الطبيب الماهر برتراند Bertherand، الذي قام منذ يوم الجمعة بعمليات بتر مستمرة في سان لويجي. هذا، وقام اثنان آخران من كبار الجراحين هما الدكتور لوريه Leuret والدكتور هاسبل Haspel، وطبيبان إيطاليان، واثنان من المساعدين هما ريولاكي Riolacci ولوبشتاين Lobstein بوضع الضمادات ومداواة الجروح طيلة يومين، وواصلوا أداء مهمتهم الشاقة أثناء الليل. إن الجنرال أوجي بسلاح المدفعية، الذي نقل في البداية إلى كازا مورينو Casa Morino حيث أقيم مستشفى القيادة العامة لفيلق المارشال ماك ماهون الذي كان أوجي تابعاً له، قد نقل الآن إلى كاستليوني. لقد تحطم الكتف الأيسر لهذا الضابط البارز بعد أن أصابته كرة حديدية انحشرت لمدة أربع وعشرين ساعة في عمق عضلات الإبط. وتوفي الجنرال أوجي يوم ٢٩ بعد عملية بتر لذراعه كان لابد من إجرائها لاستخراج تلك الكرة ونتيجة للغنغرينا التي اجتاحت الجرح.

وأصبح عدد قوافل الجرحى التي وفدت خلال يوم السبت ضخماً بحيث أضحى الجهاز الإداري والسكان والقوات التي تركت في كاستيلوني عاجزين تماماً عن معالجة كل هذا البلاء. ومن هنا بدأت مشاهد محزنة كتلك التي كانت بالأمس، لكنها من نوع آخر

تماماً. فهنا يتوفر الماء والطعام، غير أن الجرحى يموتون جوعاً وعطشاً. وهنا تتوفر الضمادات لكنها لا تجد الأيدي اللازمة لوضعها على الجروح. واضطر معظم أطباء الجيش إلى الذهاب إلى كافريانا، كما كان هناك عجز في الممرضين، وقلّت السواعد في تلك اللحظات الحرجة. وكان من الواجب عندئذ تنظيم خدمات طوعية بصورة أو بأخرى، غير أن ذلك كان أمراً بالغ الصعوبة في هذا الاضطراب، الذي زاد بشكل خطير على إثر استيلاء الفزع على سكان كاستليوني، مما ضاعف من بؤس حالة الجرحى نتيجة للهياج الذي أحدثه فيهم ذلك الفزع.

كان سبب تلك الفوضى في الواقع تافها للغاية، ذلك أن كل فيلق من فيالق الجيش الفرنسي قد أفاق بعد اتخاذ موقعه، وتكونت في اليوم التالي للمعركة قوافل من أسرى الحرب أقتيدت إلى برتشيا عن طريق كاستليوني ومونتكيارو. وبعد الظهر اقتربت إحدى قصائل الأسرى يحرسها مشاة الخيالة أثناء تقدمها من كافريانا في اتجاه كاستليوني، فلاحظها السكان من بعيد، فظنوا عن جهل أن الجيش النمساوي قد عاد إلى المدينة بحشود غفيرة. ورغم سخف وعدم صحة هذا الخبر الذي ساهم في إشاعته الفلاحون وسائقو النقل الاحتياطيون في الجيش والباعة المتجولون الذين يتبعون القوات عادة أثناء الحملات العسكرية، إلا أن سكان المدينة قد شاركوا أيضاً في نشر هذه الإشاعة المثيرة للسخرية عندما رأوا هؤلاء الأشخاص اللاهثين من الهلع يندفعون في وسطهم، فأغلقت البيوت أبوابها على التو، واعتزل السكان في منازلهم وأحرقوا الأعلام الثلاثية الألوان التي كانت تزدان بها نوافذهم واختبأوا في أقبائهم أو في مخازن الغلال. وهرب البعض إلى الحقول مع زوجاتهم وأطفالهم حاملين ما غَلا من الأمتعة. أما الذين كان جزعهم أقل، فظلوا في منازلهم، غير أنهم أسرعوا إلى إيواء أول من وقع في أيديهم من الجرحى النمساويين الذين جمعوهم من الميادين، وراحوا يغدقون

عليهم من صنوف الرعاية والمجاملة. وفي الشوارع وعلى الطرق العامة المزدحمة بناقلات الجرحى المتجهة إلى برتشيا وقوافل تموين الجيش القادمة من تلك المدينة، كنت ترى عربات النقل تجري بسرعة فائقة، والخيل تركض هاربة في كل اتجاه وسط صراخ الفزع والغضب، وعربات المدافع المحملة بالأمتعة وقد انقلبت، وشحنات البسكويت وقد قذفت في الحفر التي تحفّ بالطريق العام. وأخيراً نرى السائقين الاحتياطيين وقد استولى عليهم الفزع فخلعوا عُدّة الخيل، وانطلقوا بها بأقصى سرعة على الطريق المؤدي إلى مونتكيارو وبرتشيا مثيرين في طريقهم الفزع ومحدثين هياجاً يفوق الوصف. وكانوا يصطدمون في سباقهم هذا بالعربات المحملة بالخبز والأطعمة التي كانت السلطات المدنية في برتشيا ترسلها بانتظام إلى معسكر جيش الحلفاء، فكان كل من يقابلهم ينضم إليهم، وكانوا يدوسون تحت أقدامهم الجرحى الذين يصرخون طالبين التقاطهم دون مجيب. وكان جرحى كثيرون يمزقون أربطتهم غير ملتفين إلى أي تنبيه، ثم يخرجون مترنحين من الكنائس التي يرقدون فيها ويندفعون في الشوارع هائمين على غير هدى.

كم من آلام ومعاناة شهدتها أيام ٢٥ و٢٦ و٢٧! فالجراح قد تلوثت بسبب الحرارة والأتربة، ونقص الماء والإسعافات، فأصبحت أشد وجعاً. والهواء أفسدته الروائح الكريهة رغم الجهود الحميدة التي بذلتها السلطات للمحافظة على نظافة الأماكن التي تحولت إلى مستشفيات. وكان العجز في عدد المساعدين والممرضين والخدم ملموساً بشكل خطير نظراً لأن القوافل القادمة إلى كاستليوني كانت تقذف بأفواج جديدة من الجرحى كل ربع ساعة. ورغم الجهود التي قام بها أحد أطباء الجيش مع اثنين أو ثلاثة أشخاص آخرين لتنظيم نقل الجرحى إلى برتشيا باستخدام عربات تجرها الثيران، ورغم المساعدة التلقائية التي قدمها أصحاب العربات في برتشيا الذين جاءوا لحمل المرضى وأوكل إليهم نقل الضباط،

فقد كان عدد الذين يرحلون أقل كثيراً من عدد القادمين، مما أدى إلى تفاقم حالة التكدس.

وعلى بلاط مستشفيات كاستليوني وكنائسها رقد الرجال من كل الأمم جنباً إلى جنب، الفرنسيون والعرب، الألمان والصقالبة Slavs. وإذ اصطفوا مؤقتاً على أرضية الكنائس، لم تكن لهم قدرة على الحركة، أو لم يستطيعوا ذلك بسبب ضيق الحيز الذي يشغلوه. وكانت تدوي تحت تلك القباب المقدسة لعنات وسبائب وصرخات لا يمكن التعبير عنها. وقال لي كثيرون من هؤلاء التعساء: «آه يا سيدي، إني أتألم. لقد تركونا نموت هكذا ببؤس، مع أننا قاتلنا على خير وجه». ورغم الإنهاك الذي كانوا يحسونه، ورغم الليالي التي انقضت بلا نوم، فإن الراحة لم تجد إليهم سبيلاً. وكانوا في ضيقهم يتلمسون النجدة من طبيب، أو يتلوّون ألماً في تشنجات يائسة تنتهي بالتيتانوس (الكزاز) ثم بالموت. وكان بعض الجنود الذين يعتقدون أن الماء البارد إذا سكب على جراحهم المتقيحة كوّن فيها الدود يرفضون أن تبلل ضماداتهم بسبب هذا التصور السخيف. وآخرون ممن حظوا بفرصة العلاج في المستشفيات الميدانية لم يتوفر لهم ذلك أثناء توقفهم الاضطراري في كاستليوني، في الوقت الذي كانت فيه الضمادات التي ربطت بقوة لمساعدتهم على تحمل هزات الطريق تسبب لهم عذاباً حقيقياً نتيجة لعدم استبدالها أو حلّها. وكانت الوجوه السوداء من تراكم الذباب على جروحها تحملق بنظرات زائغة في كل اتجاه دون أن تلقى جواباً. وفي حالات أخرى كان المعطف والقميص يشكلان مع اللحم والدم خليطاً مبهماً رهيباً يؤوي الديدان. وكان الكثيرون يرتجفون من فكرة التهام الدود لهم، وكانوا يؤكدون أنهم يرونه يخرج من داخل أجسامهم، مع أنه يأتي من الآلاف المؤلفة من الذباب الذي ملأ الجو. هنا يرقد جندي مشوه تماماً، يتدلى لسانه بإفراط من فكه الممزق والمتهشم. إنه مضطرب ويريد النهوض فأبلل

شفتيه الجافتين ولسانه اليابس بالماء البارد. لقد أمسكت بملء قبضة يدي من النِّسالة وغمستها في الدلو الذي كان يحمله أحدهم ورائي، ثم ضغطت الماء المتسرب في هذه الاسفنجة في فمه الذي تحول إلى فتحة مشوهة. وهناك يرقد بائس آخر وقد أطاحت ضربة سيف بجزء من وجهه فانفصل الأنف والشفتان والذقن عن بقية الوجه. لقد عجز عن الكلام، وأصبح نصف أعمى، لذلك فإنه يشير بيده. وقد شد إليه الأنظار بتلك الإيمائية المؤلمة المصحوبة بأصوات صادرة من الحلق. لقد أعطيته ليشرب، وسكبت على وجهه الدامي بضع قطرات من الماء النقي. وهذا ثالث، جمجمته مشقوقة باتساع، يموت ناثراً مخه على بلاطات الكنيسة. وكان رفاقه في البلاء يدفعونه بأرجلهم لأنه يعيق المرور. لقد عملت على حماية لحظاته الأخيرة، وغطيت بمنديل رأسه المسكينة، التي كانت تتحرك حركة طفيفة.

ورغم أن كل بيت قد تحول إلى عيادة، وكان لدى كل أسرة ما يكفيها من العمل للعناية بالضباط الذين آوتهم، غير أنني نجحت في صباح الأحد في جمع عدد من السيدات اللاتي ساعدن بمجهودهن بقدر المستطاع لمعاونة الجرحى. ولم يكن الأمر يتعلق في الواقع بعمليات البتر أو أية عمليات أخرى من أي نوع، فقد كان من الواجب تقديم الطعام، بل والماء قبل كل شئ، إلى الذين يموتون من الجوع والعطش، ثم بعد ذلك تلزم مداواة الجراح أو غسل الأجساد الدامية التي غطاها الوحل والهوام. ويلزم أداء هذه المهمة وسط الروائح النتنة المقزّزة، والنحيب وعويل الألم، وفي جو خانق فاسد. وسرعان ما تكونت نواة من المتطوعين. وكانت سيدات لومبارديا يجرين صوب المرضى الأعلى صياحاً دون أن يكونوا الأحوج للشفقة. وعَملتُ على تنظيم أعمال الغوث بقدر المستطاع في الأحياء الأكثر افتقاراً إليها. وركزت بوجه خاص على إحدى كنائس كاستليوني تقع على ربوة على يسار القادم من برتشيا

وتسمى ـ إن لم أكن مخطئاً ـ كنيسة كيزي ماجيور. لقد تكدس بداخلها ما يقرب من خمسمائة جندي، كما استلقى مائة آخرون على القش أمام الكنيسة وتحت مظلات القماش التي شُدّت لتقيهم من الشمس. وكانت السيدات اللائي دخلن إلى الكنيسة يتنقلن من جريح إلى جريح حاملات جراراً وقِرَباً مليئة بماء رائق يروين به ظمأهم، ويرطّبن به جروحهم. وبعض من هؤلاء الممرضات المرتجلات كن شابات حسناوات لطيفات. وكانت رقّتهن وعيونهن المليئة بالدموع والشفقة ورعايتهن المتيقظة ـ كل ذلك يرفع بعض الشيء من معنويات المرضى ويشجعهم. وكان صبية المنطقة يجرون ذهاباً وجيئة من الكنيسة إلى أقرب الينابيع حاملين الدّلاء والزمزميات والمراشّ. وبعد توزيع الماء يجئ تقديم الحساء ومرق اللحم، الذي كانت تضطر إدارة الإمداد والتموين إلى تحضيره بكميات هائلة. وكانت الضمادات متوفرة في عدة نقاط في بالات ضخمة، ويستطيع كل شخص استعمالها بحرية كاملة، غير أنه لم تكن هناك كميات كافية من الأربطة والملابس الداخلية والقمصان. كما كانت الموارد محدودة في تلك المدينة التي مرّ بها الجيش النمساوي حتى أنه لم يمكن الحصول على أبسط المستلزمات الأولية. ومع ذلك، فقد نجحت في شراء قمصان جديدة عن طريق أولئك النسوة الطيبات اللاتي أحضرن لي من قبل كل ملابسهن القديمة. وفي يوم الاثنين قمت بإيفاد حوذي العربة التي كنت أستخدمها إلى برتشيا لإحضار بعض المؤن، فعاد بعد بضع ساعات والعربة محملة بالبابونج، والخبّازي، والبلسان، والبرتقال، والليمون، والسكر، والقمصان، والاسفنج، وأربطة الكتان، والدبابيس، والسيجار، والتبغ، مما سمح بتقديم شراب الليمون البارد بعد طول انتظار، وبغسل الجروح بماء الخبّازي، وعمل الكمادات الدافئة، وتغيير ضمادات الجروح. وخلال فترة الانتظار كسبنا متطوعين جدداً انضموا إلينا. فهناك ضابط بحرية قديم، وسائحان انجليزيان

جاءا ليشاهدا كل شيء فدخلا الكنيسة، ولكننا احتجزناهما واستبقيناهما بالقوة تقريباً. وهناك انجليزيان آخران كانت تبدو عليهما الرغبة في مساعدتنا منذ البداية، وقاما بتوزيع السيجار على النمساويين. وهذا قسّ إيطالي وثلاثة أو أربعة من الجوالة الفضوليين ثم صحفي من باريس تولّى فيما بعد الاضطلاع بمهمة الإسعاف في كنيسة مجاورة. وقد ساعدَنا أيضاً بعض الضباط الذين تلقت فصيلتهم أمراً بالمرابطة في كاستليوني. غير أن واحداً منهم أصابهُ الإعياء لشدة انفعاله وتأثره، كما انسحب ممرضونا الآخرون تدريجياً لعدم تحملهم لمشاهد المعاناة التي لم يكن بإمكانهم التخفيف منها إلا قليلاً. وحذا القسّ حذوهم، إلا أنه ظهر مرة أخرى ليقدم لنا بلَفتة رقيقة بعض الأعشاب العطرية وقوارير الطيب لاستنشاقها. وانفجر سائح فرنسي شاب بالبكاء لتأمله لرؤية تلك الأشلاء البشرية. وكرّس أحد التجار من نيوشاتل Neuchâtel نفسه لمدة يومين لمداواة الجروح ولكتابة رسائل المحتضرين التي يودّعون فيها أسرهم، واضطر الأمر إلى تخفيف حماسه مراعاة لحاله. كما تمت تهدئة حماس أحد البلجيكيين الرحماء، وقد اشتد نشاطه حتى خشينا أن تصيبه نوبة الحمى التي أصابت ملازماً ثانياً كان يرقد بالقرب منا. وكان هذا الملازم قد جاء من ميلانو ليلحق بالفيلق الذي ينتمي إليه. وحاول بعض جنود فصيلة الحامية التي تُركت بالمدينة إغاثة زملائهم، غير أنهم لم يقووا على احتمال ذلك المشهد الذي حطم معنوياتهم إذ مَسّ بعنف مخيلتهم. وها هو عريف من سلاح المهندسين أصيب في ماجنتا Magenta، وتماثل للشفاء ليعود إلى كتيبته. وكان خط سيره يسمح له بالبقاء لبضعة أيام فصاحَبَنا وساعَدَنا بحماس رغم إصابته بالإغماء مرتين متتالتين. وأخيراً صرح المفوضّ الفرنسي الذي استقر في كاستليوني منذ فترة وجيزة باستخدام الأسرى الأصحاء لخدمة المستشفيات. وجاء ثلاثة من الأطباء النمساويين لمعاونة جراح كورسيكي Corse شاب أزعجني

عدة مرات طالباً مني شهادة تثبت الكفاءة والحماس اللذين رأيتهما عليه وهو يعمل معنا. كذلك فإن جرّاحاً ألمانيا قصد أن يبقى في ساحة المعركة لمعالجة جرحى بني وطنه، ولكنه كرس نفسه للجرحى من الجيشين. وتقديراً له، بعثت به إدارة الإمداد بعد ثلاثة أيام ليلحق ببني وطنه في مانتوا.

كان بعض الجرحى البؤساء يصرخون نحوي وكل منهم يقول: «لا تتركوني أموت!»، ثم يتشبث بيدي بقوة غير عادية. وكانوا يموتون بمجرد أن تتركهم تلك القوة الزائفة. وهذا عريف شاب في سن العشرين، له وجه هادئ ومعبّر، يدعى كلوديوس مازويه Cladius Mazuet، أصيب برصاصة في جنبه الأيسر، وحالته ميئوس منها، وكان هو يدرك ذلك. وقد ساعدته ليشرب فشكرني والدموع في عينيه وأضاف: «آه يا سيدي لو أمكنك أن تكتب لأبي رسالة حتى يواسي أمي!». أخذت عنوان والديه، وإذ به يفارق الحياة بعد ذلك بلحظات[٩]. وهذا رقيب مُسِنّ كانت تزّين سترته شرائط عدة، قال لي بحزن عميق ومرارة باردة، وعن اقتناع: «لو كنت قد عولجت في وقت مبكر لكتَبت لي الحياة، ولكني سأموت هذا المساء». وقد فارق الحياة في المساء ذاته.

أحد رماة القنابل بالحرس يصرخ بقوة «لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت». وكان هذا يتمتع قبل ثلاثة أيام بالقوة والبأس، إلا أنه أصيب بجرح مميت، وأحسّ بأن لحظات عمره أضحت معدودات، فأخذ يقاوم ويتخبط في مواجهة هذا المصير المظلم. فتكلمت معه، وأنصت لي. وانتهى الأمر بذلك الرجل الذي هدأ وسكن وتعزى

(٩) كان هذا الشاب وحيداً لوالديه. وقد انخرط في الجيش كمتطوع. يسكن والداه في ٣ شارع الجزائر في ليون Lyon. ولم يعرفا عن ابنهم أي أخبار سوى التي كتبتها لهم. لقد وضع أمام اسمه، شأنه شأن كثيرين آخرين، كلمة «مفقود».

إلى الاستسلام للموت ببساطة وبراءة الأطفال. وهناك في عمق الكنيسة يرقد قناص أفريقي على القش في مذبح قائم على الجانب الأيسر. إنه لا يتذمر، ويكاد لا يؤتي حركة قط. لقد أدركته ثلاث رصاصات، أصابت واحدة جنبه الأيمن، والأخرى كتفه الأيسر، واستقرت الثالثة في ساقه اليمنى. كنا في مساء الأحد، وهو يؤكد أنه لم يذق شيئاً منذ صباح الجمعة. كان منظره يبعث على الاشمئزاز، فهو مغطى بالوحل الجاف والدماء المتجلطة، ملابسه ممزقة وقميصه قد تحول إلى قصاصات. قمت بغسل جروحه. وأعطيته قليلاً من الحساء، ووضعت فوقه غطاء، فتناول يدي ووضعها عند شفتيه دليلاً على امتنان لا يستطيع أن يعبر عنه. وعند مدخل الكنيسة يوجد رجل مجري يصرخ دون انقطاع أو هوادة طالبا طبيباً باللغة الإيطالية وبلهجة تقطع أوتار القلب. لقد مزّقت شظايا طلقة مدفع كلْيتيه اللتين ظهرتا وكأن مخالب حديدية قد مشطتهما فكشفت عن مساحة كبيرة من اللحم الأحمر الذي ينبض . كان باقي جسده متورماً، يشوبه الاسوداد والاخضرار، ولا يستطيع الرقود أو الجلوس. بللت كمية كبيرة من الضمادات بالماء البارد وحاولت وضعها تحته، غير أنه سرعان ما قضى نحبه بسبب الغنغرينا. وليس ببعيد عنه نجد أحد الزواوين يبكي بدموع حارة جعلتنا نُهدئ من روعه كطفل صغير. وكان الإعياء الذي أصاب هؤلاء الجرحى في الأيام السابقة، مضافاً إليه نقص الغذاء وقلة الراحة مع الانفعال المضني والجزع من الموت دون مُعين ـ كل ذلك يبعث لدى أشجع المقاتلين انفعالات عصبية تتجلى في أنّات ونحيب. وكان من بين ما يسيطر عليهم من أفكار في اللحظات التي تخفّ فيها آلامهم قليلاً هو تذكار أمهاتهم، وتخوفهم من الحزن الذي سينتابهن عندما يعرفن مصير أولادهن. ويقع البصر على جسد شاب يعلّق في رقبته صورة سيدة مُسنّة، هي والدته دون شك، وكان يبدو وهو يضغط تلك الأيقونة بيده اليسرى على قلبه.

وهنا، وبطول الحائط يرقد في هدوء وسكينة ما يقرب من مائة من الجنود وضباط الصف الفرنسيين، وقد لُفَّ كل منهم في غطائه، موضوعين في صفين متوازيين يفصل بينهما ممر ضيق. لقد عولجوا جميعاً، ووزع عليهم الحساء. إنهم يتابعونني بنظراتهم فتتحول رؤوسهم إلى اليمين إذا ذهبت يميناً وإلى اليسار إذا تحركت يساراً. كان أحدهم يقول «يبدو أنه باريسي[١٠]»، ويردّ آخر: «لا إنه يبدو من الجنوب، ويسألني ثالث: «ألست من بوردو يا سيدي؟» وكان كل شخص يود أن أكون من مقاطعته أو مدينته. إن الاستسلام الذي أبداه هؤلاء المقاتلون البسطاء عادة لهو جدير بالملاحظة والاهتمام. فإذا نظرنا إليهم ـ كل على حدة ـ وتساءلنا، ما الذي يمثله في هذه المعمعة الهائلة؟ يكون الجواب: إنه شئ ضئيل لا يذكر. لقد كانوا يتألمون دون ضجر، ويموتون في دِعة وبلا ضوضاء.

كان ينذُر أن يتصدى الجرحى أو الأسرى النمساويون لقاهريهم. لقد رفض بعضهم العلاج، ودفعهم التحدي إلى نزع أربطتهم وإدماء جروحهم. وأخذ أحد الكرواتيين الرصاصة التي استخرجت منه، وقذف بها الجرّاح في جبهته. أما البعض الآخر، فظلوا واجمين، متجهمة وجوههم، فاترِي الشعور. ولم تكن لهم، بصفة عامة، تلك الخصائص التي يتميز بها العنصر اللاتيني من انشراح ورضا وحيوية دمثة معبّرة. ومع ذلك، فإن أكثريتهم كانوا أبعد من أن يجحدوا المعاملة الطيبة أو يظهروا القساوة أو التمرد تجاهها. وارتسم على وجوههم المندهشة تعبير صادق عن العرفان. وكان

(١٠) لقد كنت سعيداً عندما التقيت في باريس في العام التالي، وعلى وجه التحديد في شارع ريفولي بمقاتلين مبتوري الأعضاء ومعوقين. لقد عرفوني وأوقفوني ليعبروا لي عن امتنانهم لما قدمته لهم من عناية في كاستليوني. وقال لي واحد منهم: «إننا نسميك الرجل الأبيض، فقد كانت ملابسك كلها بيضاء. لقد كان الجو في الواقع حاراً إلى حد كبير!»

ما عرف باسم «لجنة الخمسة».

القلم عن تصويرها، وتفوق في هولها ما نعرضه هنا[١٢]. غير أنه قد يحدث أن ينهار القلب دفعة واحدة، وكأنما أصابه بغتة حزن مرير لا يُقاوَم، وذلك أمام مشهد بسيط يجري هنا أو هناك، أو أمر غير منتظر يتجه إلى الضمير مباشرة، ويستولي على المشاعر، ويهز كل الأوتار الحساسة في كياننا.

عندما يعود الجندي إلى الحياة الروتينية للجيش في الميدان بعد المتاعب الهائلة والانفعالات الرهيبة التي لابد وأن يكون قد مَر بها طوال يوم القتال وفي اليوم التالي لمعركة مثل معركة سولفرينو، فإن ذكريات الأسرة والوطن تكون بالنسبة له أكثر نبضاً وتأثيراً منها في أي وقت آخر. وقد وصف هذا الموقف بصورة حيّة ضابط فرنسي باسل في السطور المؤثرة التالية التي كتبها من فولتا لشقيقه الذي تركه في فرنسا «لا يمكنك أن تتخيل كم يكون الجندي متأثراً عندما يلمح ظهور ساعي البريد المكلف بتوزيع الرسائل في الجيش. أترى، إنه الرجل الذي يجلب لنا الأنباء عن فرنسا، الوطن والأهل والأصدقاء. ويصبح الكل عيوناً وآذاناً وهم يمدون بلهفة أياديهم نحوه. إن السعداء الذين يجدون لهم رسالة يفضّونها على عجل، ويلتهمون محتوياتها في الحال. أما الآخرون المحرومون فإنهم

(١٢) نظراً لأن هذه الحوادث قد وقعت قبل ثلاث سنوات من جمع تلك الذكريات الأليمة، التي لم يكن في نيتي نشرها على الإطلاق، فإنه من الطبيعي أن تكون الذكريات مشوشة قليلاً، علاوة على أنها تكون مجرد ملخص لمشاهد الألم والتعاسة التي وقع عليها بصري. غير أنه إذا أمكن لهذه الصفحات أن تثير أو تبرز أو تبين إلحاح مسألة العون الذي يجب تقديمه للجرحى من المقاتلين أثناء الحرب، أو الإسعافات الأولية الواجب توفيرها لهم بعد الاشتباك، وما إذا كانت هذه المسألة تستطيع جذب انتباه البشر ذوي الإنسانية وروح الإحسان. وبمعنى آخر، إذا أدت دراسة هذا الموضوع الهام إلى إحراز تقدم كبير في أي وقت حتى في أكثر الجيوش تنظيماً، إذا حدث ذلك فإني أكون قد حققت هدفي كاملاً.

أحدهم، ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، يرقد هو وأربعون آخرون من بني وطنه بعيداً في أقصى موضع بالكنيسة، وظل بلا طعام لمدة ثلاثة أيام. إنه فقد إحدى عينيه، وكانت تهزه الحمّى، ولا يقوى على الكلام، وجمع بصعوبة قوته ليحتسي قليلاً من المرق. لقد بعث فيه اهتمامنا الحيوية من جديد، وكان آسفاً، بل ويكاد يتمزق، عندما تركَنا بعد أربع وعشرين ساعة، عُندما أمكن إرساله إلى برتشيا. وكانت العين التي تبقت له، وقد اصطبغت باللون الأزرق، تعبّر عن شكر عميق وكبير. وكان يطبع قبلات حارة على أيدي سيدات كاستيلوني الرحيمات. وهذا أسير آخر وقع فريسة للحمّى يجذب إليه الانتباه. فهو لم يبلغ من العمر عشرين عاماً، لكن شعره أبيض تماماً. لقد ابْيَضَّ شعره في يوم المعركة فقط، وهذا ما يؤكده هو وزملاؤه[١١].

كم من شبان في الثامنة عشرة وفي سن العشرين جاءوا رغم إرادتهم من أعماق ألمانيا أو من المقاطعات الشرقية من إمبراطورية النمسا الواسعة. وسيعاني بعضهم ـ ربما قسراً أو بوحشية ـ لا من الآلام الجسدية وأحزان الأسْر فحسب، بل وأيضاً من شعور العداوة من جانب أهل ميلانو الذين يضمرون الكراهية لعنصرهم وقادتهم وعاهلهم. إنهم لن يلقوا أي تعاطف قبل أن يصلوا إلى أرض فرنسية! كم سيبلغ بؤسكن أيتها الأمهات في ألمانيا والنمسا والمجر وبوهيميا، وكيف يمكن أن نتصور حزنكن عندما تعرفن أن

(١١) ذكرت هذا في إحدى جلسات جمعية علم السلالات في باريس، كما أشار إليه م. ر. كورتامبير Cortambert في مقاله الرائع «الشَعر عند الشعوب المختلفة» الذي نشر في عدد يناير/كانون الثاني ١٨٦٠ من «المجلة الشرقية والأمريكية» (باللغة الفرنسية).

أولادكن الجرحى مأسورون في هذا البلد المعادي! لكن سيدات كاستيلوني كن يسلكن مسلكي عندما كنت لا أميّز شخصاً عن شخص بسبب العنصر، فكن يُظهرن العطف نفسه لكل هؤلاء الرجال ذوي الأصول المختلفة، الذين تساووا في الغربة، وكن يردّدن بحماس «توتي فراتللي» أي «الكل أخوة». المجد لهؤلاء الشابات والنسوة الرحيمات في كاستيلوني! فقد كن يتمتعن برباطة الجأش، والدأب، والثبات، ولم يعبأ تفانيهن الوديع بالمتاعب أو الأهوال أو التضحيات.

إن الشعور الذي نحس به في عجزنا البالغ في مثل هذه الظروف المهيبة وغير العادية لهُو عذاب يفوق كل تعبير. إنه ليشقّ على نفسك أن تكون عاجزاً عن التخفيف عن هؤلاء البائسين الذين تقف أمامهم، أو عن الوصول إلى أولئك الذين يطلبونك بإلحاح. وقد تمرّ ساعات طوال قبل أن تدرك المكان الذي ينبغي الوصول إليه، إذ يستوقفك أحدهم، ويتوسل إليك آخر، وفي كل خطوة تعترضك زمرة من البؤساء الذين يتجمعون أمامك ويلتفون حولك. ولماذا تتجه يميناً، بينما إلى اليسار أناس كثيرون يموتون دون كلمة عطف أو مواساة، بل وبدون كوب من الماء يطفئ لهيب ظمئهم؟ إن الإحساس المعنوي بأهمية الحياة الإنسانية، والرغبة في التخفيف ولو قليلاً عن عذاب هؤلاء البؤساء الكثيرين أو رفع معنوياتهم المتدهورة، والنشاط الحتمي والمتصل الذي تفرضه علينا هذه اللحظات ـ كل ذلك من شأنه أن يُولّد طاقة جديدة وفائقة، ويخلق لهفةً واشتياقاً حقيقياً إلى مساعدة أكبر عدد ممكن. لم يعد المرء منا يفزع وهو يواجه الآلاف من المشاهد التي تنسج تلك المأساة الرهيبة والمهيبة، فيمر دون اكتراث أمام الأجساد التي تشوهت ببشاعة، ويكاد يتطلع بفتور إلى مناظر مروعة قد ينأى

القلم عن تصويرها، وتفوق في هولها ما نعرضه هنا[١٢]. غير أنه قد يحدث أن ينهار القلب دفعة واحدة، وكأنما أصابه بغتة حزن مرير لا يُقاوَم، وذلك أمام مشهد بسيط يجري هنا أو هناك، أو أمر غير منتظر يتجه إلى الضمير مباشرة، ويستولي على المشاعر، ويهز كل الأوتار الحساسة في كياننا.

عندما يعود الجندي إلى الحياة الروتينية للجيش في الميدان بعد المتاعب الهائلة والانفعالات الرهيبة التي لابد وأن يكون قد مّر بها طوال يوم القتال وفي اليوم التالي لمعركة مثل معركة سولفرينو، فإن ذكريات الأسرة والوطن تكون بالنسبة له أكثر نبضاً وتأثيراً منها في أي وقت آخر. وقد وصف هذا الموقف بصورة حيّة ضابط فرنسي باسل في السطور المؤثرة التالية التي كتبها من فولتا لشقيقه الذي تركه في فرنسا «لا يمكنك أن تتخيل كم يكون الجندي متأثراً عندما يلمح ظهور ساعي البريد المكلف بتوزيع الرسائل في الجيش. أترى، إنه الرجل الذي يجلب لنا الأنباء عن فرنسا، الوطن والأهل والأصدقاء. ويصبح الكل عيوناً وآذاناً وهم يمدون بلهفة أياديهم نحوه. إن السعداء الذين يجدون لهم رسالة يفضّونها على عجل، ويلتهمون محتوياتها في الحال. أما الآخرون المحرومون فإنهم

(١٢) نظراً لأن هذه الحوادث قد وقعت قبل ثلاث سنوات من جمع تلك الذكريات الأليمة، التي لم يكن في نيتي نشرها على الإطلاق، فإنه من الطبيعي أن تكون الذكريات مشوشة قليلاً، علاوة على أنها تكون مجرد ملخص لمشاهد الألم والتعاسة التي وقع عليها بصري. غير أنه إذا أمكن لهذه الصفحات أن تثير أو تبرز أو تبين إلحاح مسألة العون الذي يجب تقديمه للجرحى من المقاتلين أثناء الحرب، أو الإسعافات الأولية الواجب توفيرها لهم بعد الاشتباك، وما إذا كانت هذه المسألة تستطيع جذب انتباه البشر ذوي الإنسانية وروح الإحسان. وبمعنى آخر، إذا أدت دراسة هذا الموضوع الهام إلى إحراز تقدم كبير في أي وقت حتى في أكثر الجيوش تنظيماً، إذا حدث ذلك فإني أكون قد حققت هدفي كاملاً.

يبتعدون وقد ملأ الحزن قلوبهم، ثم ينسحبون ليفكروا على انفراد في ذويهم الذين بقوا هناك. ومن حين لآخر يُنادىَ على اسم، لكن ذلك الاسم لا يجيب، وينظر الرجال بعضهم لبعض. ويتساءلون وينتظرون. ويهمس أحد الأصوات: مات!، وينحّي ساعي البريد جانباً الرسالة التي ستعود إلى أولئك الذين كتبوها دون أن تفتح. لقد كانوا سعداء عندما كتبوها قائلين لأنفسهم: كم سيكون سعيداً عندما يتسلمها! ولكن قلبهم المسكين سيتحطم عندما تعود إليهم».

كانت شوارع كاستليوني أكثر هدوءاً، والموتى والمسافرون قد أفسحوا مكاناً. ورغم وصول عربات جديدة تحمل الجرحى، فقد استتب النظام شيئاً فشيئاً، وبدأت الخدمات تعمل بشكل منتظم. لم يكن الارتباك راجعاً إلى سوء التنظيم أو إهمال السلطات الإدارية، ولكنه يعود إلى الأعداد الخارقة غير المتوقعة من الجنود المصابين، والعدد الضئيل نسبياً للأطباء والممرضين والمساعدين. لقد أصبحت القوافل المسافرة من كاستليوني إلى برتشيا أكثر انتظاماً. وهي تتكون إما من عربات الإسعاف أو عربات النقل الثقيلة التي تجرها ثيران تسير ببطء شديد تحت أشعة الشمس المحرقة وفي جو كثيف من الغبار، حتى أن المترجل على هذا الطريق يغرق حتى عرقوبه في تلك اللجج المائجة الصلبة. ولم تكن هذه العربات غير المريحة تقي الجرحى إلا قليلاً من حرارة شمس يوليو الملتهبة، حتى عندما كانت مسقوفة بفروع الأشجار. كُدّس الجرحى، كما يقال، بعضهم فوق بعض. ولنا أن نتصور عذاب تلك الرحلة الطويلة! وكانت مجرد إيماءة ودية توجه لهؤلاء البؤساء عندما نمر بالقرب منهم تبدو وكأنها تخفف من ألمهم، وكانوا يبادرون بالرد عليها بنظرة امتنان. وجلست الفلاحات أمام أبواب بيوتهن في كل البلدات الواقعة على طريق برتشيا يجهزن الأربطة بهدوء. وعندما تصل قافلة، يصعدن إلى العربات لتغيير الضمادات وغسل الجروح ووضع أربطة جديدة بعد أن يبللنها بالماء العذب، ثم يسكبن عدة ملاعق من الحساء أو

النبيذ أو شراب الليمون في أفواه الجرحى الذين لم تكن لهم القوة لرفع رأس أو ذراع. كانت العربات التي تنقل إلى المعسكر الفرنسي الطعام وعلائق الدواب والذخيرة والمؤن من كل نوع دون انقطاع من فرنسا أو بييومنت Piémont تنقل في طريق عودتها الجرحى إلى برتشيا بدلاً من رجوعها فارغة. وكانت السلطات المحلية مستعدة بالمشروبات والخبز واللحم في كل الضياع التي تمر بها القوافل. وعملت الفلاحات في ثلاثة مستشفيات محلية صغيرة في مونتكيارو، فكنّ يعالجن الجرحى المقيمين فيها بكل فطنة ورقّة. وفي جويديتزولو استقر، ولو بصورة مؤقتة، ما يقرب من ألف جريح بشكل مناسب في قصر كبير. وفي فولتا تحوّل دير قديم إلى ثكنة لاستقبال مئات النمساويين. وفي كافريانا وضُع عدد كبير من النمساويين المقعدين في الكنيسة الرئيسية لهذه القرية الفقيرة بعد أن ظل هؤلاء منتظرين لمدة ثمان وأربعين ساعة تحت شرفات مركز حراسة وضيع. وهناك في مركز القيادة العامة الكبير كانت تجرى في المستشفى الميداني عمليات جراحية استخدام في الكلورفورم للتخدير، فكان يسبب للنمساويين تخديراً فورياً، بينما يسبب للفرنسيين تشنجات عصبية مصحوبة بهياج شديد.

وأصبح سكان كافريانا محرومين تماماً من السلع الغذائية والمؤن. فكان جنود الحرس يتولّون إطعامهم، إذ كانوا يتقاسمون معهم جراياتهم وقصعات الطعام. لقد خُرِّب الريف تماماً، وكل ما يمكن أكله قد بيع للقوات النمساوية، أو استولت عليه هذه القوات. وبينما كان الطعام الميداني متوفراً لدى الجيش الفرنسي بفضل حكمة وتدبير الإمداد، كانت هناك صعوبة كبيرة في الحصول على الزبد والشحوم والخضر التي كانت تُستكمل بها عادة وجبة الجندي. لقد صادر النمساويون كل ماشية القرية تقريباً. وكان دقيق الذرة هو الشئ الوحيد الذي يستطيع الحلفاء العثور عليه بسهولة في الأماكن التي يعسكرون فيها الآن. ومع ذلك، فإن كل ما كان

يستطيع فلاحو لومبارديا بيعه للمساهمة في إطعام الجيش كان يُشترى منهم بأثمان مرتفعة جداً. ويتم تقدير السعر دائماً لإرضاء البائع. وكانت المواد التي يستولي عليها الجيش الفرنسي كالعلف أو البطاطس أو أي سلع أخرى يُدفع ثمنها بسخاء للأهالي الذين حصلوا على تعويض مُجزٍ للخسائر الحتمية التي سببتها المعركة.

وكان جرحى الجيش السرديني الذين نقلوا إلى ديسنزانو، وريفولتللا Rivoltella، ولوناتو، وبوتزولنجو، في وضع أفضل من أولئك الذين ذهبوا إلى كاستليوني. فمدينتا ديسنزانو وريفولتللا لم تكنا قد احتُلتا بجيشين مختلفين منذ أيام معدودة، وكانتا مزودتين بكميات أوفر من الطعام، كما كانت المستشفيات الميدانية بهما في حالة جيدة، وكان الأهالي أقل ذعراً واضطراباً فساعدوا بدور نشط في رعاية الجرحى. أما الجرحى الذين أرسلوا من هناك إلى برتشيا فكانوا يوضعون في عربات مريحة زُوّدت بطبقة سميكة من الكلأ الجاف، وتحميهم من الشمس شبكة مجدولة من أغصان مورقة مثبتة بقوة على العربات وتغطيها مفارش من الكتان القوي.

في اليوم السابع والعشرين بعد الظهر، وكنت قد انهكتُ من فرط التعب، ولم يجد النوم سبيلاً إلى عيني، ناديت على عربتي، وانطلقت في حوالي الساعة السادسة لأتنسم طراوة المساء في الهواء الطلق، وحتى آخذ قسطا يسيراً من الراحة بالابتعاد لهذه الفترة القصيرة عن المشاهد الحزينة التي تحيط بنا من كل جهة في كاستليوني. كان اليوم مناسباً، فلم تصدر (كما علمت فيما بعد) أوامر بتحريك القوات الفرنسية بالنسبة ليوم الاثنين. لذلك فإن الهدوء قد أعقب الاضطرابات الرهيبة التي سادت خلال الأيام السابقة ميدان المعركة الذي تحول إلى مشهد مقبض وقد خلا تماماً من كل انفعال أو حماس. غير أن المرء يلاحظ مستنقعات من الدماء الجافة منتشرة هنا وهناك وقد أضفت على التربة لوناً أحمر،

المؤتمر الدبلوماسي لعام ١٨٦٤ في جنيف.

«... لوضع مبدأ دولي ما، اتفاقي ومقدس، يصبح متى أُقِرّ وصُدّق عليه، أساسًا تقوم عليه جمعيات لإغاثة الجرحى...» (الصفحة ١١١).

كما تشير الأرض المبيضة المقلوبة حديثاً والمغطاة بالجير إلى المواضع التي يستريح فيها ضحايا يوم ٢٤. هنا في سولفرينو، حيث يقف البرج المربع منذ قرون يطلّ مزهواً غير عابئ على تلك الأرض التي تتصارع عليها للمرة الثالثة اثنتان من أكبر الدول في الأزمنة الحديثة، لا زالت تُجمع أشلاء بائسة بأعداد وفيرة تغطي كل مكان حتى تلك الصلبان والأحجار الدامية فوق القبور في جبّانات القرية. وصلتُ في حوالي التاسعة مساء إلى كافريانا: ورأيت هناك المنظر المدهش الذي ظهرت به الحاشية العسكرية التي تحيط بمركز القيادة العامة لامبراطور الفرنسيين. وبحثت عن المارشال ماك ماهون دوق ماجنتا الذي كان لي شرف التعرف به شخصياً. ولم أكن أعرف يقيناً مكان المعسكر الذي يخيّم فيه في ذلك الوقت، فأوقفت عربتي في ميدان صغير في مواجهة البيت الذي كان يقيم فيه الامبراطور نابليون منذ مساء يوم الجمعة. وفاجأت مجموعة من الجنرالات كانوا يجلسون على كراس بسيطة من القش وكراس خشبية يدخنون السيجار ويتنسّمون الهواء أمام القصر الذي أعدّ على عَجَل لعاهلهم. وبينما أنا استفسر عن وجهة المارشال ماك ماهون سأل عني أولئك الجنرالات بدورهم من العريف[١٣] الذي كان بصحبتي والذي كان يجلس مع الحوذي على مقعد عربتي،

(١٣) كان هذا العريف قد جرح في ماجنتا في طريقه للعودة إلى كتيبته بعد تماثله للشفاء، وساهم بطريقة تثير الإعجاب في مساعدة الممرضين في كاستليوني. وقد قبلت عرضه لمصاحبتي في مهمتي وسط هذه القوات، حيث تعتبر رتبته بوصفه صف ضابط بمثابة جواز مرور لي في مثل هذا الوقت. وفي ذلك اليوم نفسه، يوم السابع والعشرين، اعتقل الجنود الفرنسيون رجلين انجليزيين أصرّا على المغامرة بالسير وسط الخطوط الفرنسية وكان يُعتقد أنهما جاسوسان ألمانيان، فعوملوا معاملة سيئة طوال مدة بقائهما في المعسكر الذي ساقهما حظهما المتعثر إلى دخوله حتى التقوا بالمارشال قائد الفيلق الذي وضع نهاية سريعة للمغامرة التي أسعدت في النهاية هذين الرجلين دون شك.

وكانوا يظنون أنه جندي وصيف يتبعني، ويريدون بشغف أن يعرفوا من أنا، وما هو هدف البعثة التي افترضوا أنني مكلف بها، إذ لم يمكن أن يجول بخاطرهم أن مجرد سائح مثلي يعرّض نفسه للخطر بمفرده في قلب المعسكرات، ويصل إلى كافريانا، ويستعد للذهاب إلى أبعد من ذلك في هذا الوقت المتأخر. وبالطبع، فقد ظل العريف الذي لا يعرف عن ذلك أكثر منهم غامضاً وهو يجيب باحترام شديد عن أسئلتهم. ويبدو أن الفضول قد نما لديهم عندما رأوني أستأنف الرحيل إلى بورجيتو، حيث كنت أتوقع وجود دوق ماجنتا. وكان على الفيلق الثاني الذي يقوده المارشال أن يرحل يوم ٢٦ من كافريانا إلى كاستيلارو Castellaro التي تبعد عنها بخمسة كيلومترات. وقد عسكرت الفرق التابعة للمارشال على يمين وعلى يسار الطريق المؤدي من كاستيلارو إلى مونزامباتو Monzambano. أما المارشال نفسه مع مساعديه فقد كان في بورجيتو. ولكن الليل تقدم بنا، وكانت المعلومات التي حصلت عليها غامضة إلى حد ما، وبعد ساعة من السير اتضح لنا أننا قد أخذنا طريقاً آخر يؤدي إلى فولتا، وبذلك صادفنا فيلق الجنرال نييل، الذي مُنح رتبة مارشال منذ ثلاثة أيام خلت، وكان يرابط بقواته في ضواحي تلك المدينة الصغيرة. إن الضوضاء غير الواضحة التي تسمع تحت هذه السماء الجميلة المليئة بالنجوم، ونيران المخيمات التي تشتعل فيها أشجار بأكملها، وخيام الضباط المضيئة، وباختصار، فإن الهمسات الأخيرة لمعسكر لا هو ساهر ولا هو نائم كانت بمثابة راحة لذيذة لذهني المشدود والمتقد. وحلّت ظلال المساء والهدوء المطبق محل الصخب والانفعالات المتنوعة التي سادت النهار، واستنشقنا بلذة في تلك الليلة الرائعة من ليالي إيطاليا هواء نقياً عليلاً.

أما الحوذي الإيطالي المرافق لي فقد سقط فريسة للذعر وسط تلك الظلمات، وظن أنه قريب جداً من العدو حتى أنني اضطررت غير

مرة أن أعطي عنان الجواد للعريف أو أمسكه بنفسي. لقد هرب هذا الحوذي المسكين من مانتوا منذ ثمانية أو عشرة أيام لتجنب العمل مع القوات النمساوية، ولجأ إلى برتشيا يبحث فيها عن عمل ليكسب منه عيشه، ووجد عملاً كحوذي لدى أصحاب العربات. لقد ازداد رعب الحوذي في الطريق بعد أن انطلق من بعيد مقذوف ناري رماه أحد النمساويين عندما أحسّ بنا، ثم هرب بعيداً، واختبأ في إحدى الأجمات. كان ذلك الرجل واحداً من الجنود الذين اختبأوا عند انسحاب الجيش النمساوي في أقباء منازل القرى الصغيرة، التي تركها سكانها نصف مدمرة. وكان هؤلاء الهاربون البؤساء المنعزلين والمرتجفين قد شربوا وأكلوا، كيفما اتفق، في تلك الأقباء، ثم انطلقوا إلى الحقول خلسة ليهيموا بها على غير هدى طوال الليل. ولم يتمكن رجل مانتوا من تهدئة نفسه، وبالتالي لم يستطع قيادة جواده في خط مستقيم. إذ كان يتلفت يميناً ويساراً محملقاً بعينيه الزائغتين في كل الأجمات بطول الطريق متوقعاً في كل لحظة رؤية نمساوي مختبئ مستعد لرميه بالنار. كانت نظراته المرتجفة تتفحص كل سياج وكل كوخ. وتتضاعف مخاوفه عند أقل منعطف من منعطفات الطريق. وقد تبدّل خوفه إلى ذهول لا يوصف عندما قطع سكون الليل العميق دويُّ مقذوف آخر أطلقه حارس منعتنا الظلمة من تبينه. ثم كاد يسقط مغشياً عليه عندما وقع بصره بالقرب من الممر المؤدي إلى فولتا على مظلة مفتوحة كبيرة على حافة أحد الحقول وبها ثلاث فتحات من طلقات المدافع وعدد كبير من ثقوب طلقات البنادق. وكان من المرجح أن تكون تلك المظلة جزءاً من أمتعة إحدى عاملات المقصف التابعة للجيش الفرنسي فقدتها خلال عاصفة يوم ٢٤.

وقفلنا راجعين لنأخذ الطريق الصحيح إلى بورجيتو، وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. وأطلقنا لجوادنا العنان ليعدو بأقصى سرعة. وكانت عربتنا الصغيرة المتواضعة تطير في الفضاء دون

ضوضاء على طريق سترادا كافلارا Strada Cavallara، عندما فوجئنا بإنذار جديد: «من القادم، من القادم، من القادم وإلا سأطلق النار!» قالها دون أن يلتقط أنفاسه حارسٌ يمتطي جواده لقيناه وجها لوجه. وأجاب المقاتل فوراً «فرنسا!»، السرية السابعة...» فأجابنا الحارس: «اعبروا وابتعدوا». ووصلنا أخيراً في الساعة الثانية عشرة إلا ربع قبل منتصف الليل إلى أول بيوت بورجيتو[١٤] دون أن نصادف أحداً آخر. كل شئ هادئ في المدينة التي خيم عليها الظلام، غير أن ضوءاً خافتاً لمع في الشارع الرئيسي في الطابق الأرضي لأحد البيوت. وهناك في غرفة ذات سقف منخفض وجدنا بعض موظفي الحسابات يعملون. ورغم أننا قطعنا عليهم عملهم، ورغم دهشتهم القوية لظهورنا المفاجئ في تلك الساعة المتأخرة، إلا أنهم أظهروا لنا لطفاً جماً. وتميز أحدهم وهو الصرّاف أ. أوتري A. Outrey بكرم ضيافته لي، حتى قبل أن يطلع على التوصيات المختلفة التي حملتها معي من كبار الضباط. وأحضر خادمه حشية ارتميت عليها دون أن أخلع ملابسي لأستريح ساعات قليلة، وذلك بعد أن تناولت حساء ممتازاً، استمتعت به للغاية، خاصة وأنني لم آكل شيئاً يذكر لعدة أيام. ونمت بهدوء دون أن تخنقني، كما في كاستيلوني، الروائح المنفّرة ويزعجني الذباب الذي شبع من الجثث فانتقل يعذب الأحياء. أما بالنسبة للعريف والحوذي فقد جلسا في العربة الواقفة في الشارع. ولكن رجل مانتوا التعيس الحظ كان في ذعر دائم فلم تغمض له عين طوال الليل، ووجدته أقرب إلى الأموات منه إلى الأحياء.

---

(١٤) بورجيتو مدينة صغيرة يقطنها ٢٠٠٠ نسمة، على الشاطئ الأيمن لنهر مينشيو مقابل فاليجيو: وقد عبرت قوات سردينيا بقيادة الملك شارل ألبرت في عام ١٨٤٨ نهر المينشيو في هذه المنطقة، وذلك رغم المقاومة الشديدة التي لقيها من جانب النمساويين وقائدهم الفيلد مارشال رادتسكي Radetzky.

وفي يوم ٢٨، في السادسة صباحاً، لقيت استقبالاً عطوفاً وودياً لأقصى درجة من جانب المارشال ماك ماهون، الرجل الطيب الشهم، الذي يدعى بحق معبود جنوده[١٥]. وفي الساعة العاشرة كنت في ذلك المنزل في كافريانا الذي اكتسب شهرة تاريخية منذ ذلك الحين إذ نزل به خلال نهار واحد هو يوم ٢٤ يونيو من الصباح حتى المساء ملكان عظيمان متعاديان. وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر نفس اليوم عدت إلى جرحى كاستليوني الذين أعربوا لي عن سرورهم لرؤيتي من جديد. وفي يوم ٣٠ يونيو كنت في برتشيا.

تحولت هذه المدينة الجذابة الساحرة لا إلى مركز إسعاف مؤقت كبير مثل كاستيلوني، ولكن إلى مستشفى فخم. الكاتدرائيتان الموجودتان فيها وكنائس المدينة وقصورها وأديرتها ومعاهدها وثكناتها ـ وباختصار، كل مبانيها امتلأت بضحايا سولفرينو.

---

(١٥) كان دوق ماجنتا محبوباً للغاية في الجيش الفرنسي. وكان جنوده يحبونه بقدر ما يحترمونه. ففي عام ١٨٥٦ على سبيل المثال، وفي الجزائر على الطريق المؤدي إلى قسنطينه Constantine، كان اثنان من الجنود الزواويين القدامى داخل عربة تجرها الخيل وكنت أحتل فيها المقعد الخلفي. وكان هذان الرجلان يقصدان بلدة باتنه إلى حيث يذهبون للعمل في قطع أشجار الغابات، وكانا يتحدثان عن حرب المسألة الشرقية وعن المارشال ماك ماهون، بطريقتهم الجذابة، وقد بلغت مسامعي بعض ملاحظاتهم. وقال أحدهم: «هل يوجد مثل ذلك الجنرال. لقد كان شخصاً يعرف كيف يقود! إننا جنود إمبراطوريون قدامى، لا نخاف من شئ مطلقاً. ومع ذلك، فقد بكينا. هل تذكر عندما كلمنا في السهل بعد أن تركنا الخدمة؟ هل تذكر كيف ودّعنا قائلاً: «أبنائي، لقد خدمتم تحت الراية بشجاعة. وستعودون للحياة المدنية. لا تفعلوا شيئاًيمكن أن يجلب عليكم عاراً. تذكروا أن لكم والد هو أنا». وهذا ما قاله قارعاً على صدره «إن مالي هو مالكم» هل تذكر عندما رمانا بحافظة نقوده مملوءة ذهباً قائلاً لنا «تقاسموها، ولكن مهما فعلتم فلا تتشاجروا... لقد بكينا جميعاً كالبنات الصغيرات».

وأقيم دون إعداد سابق خمسة عشر ألف سرير، بصورة أو بأخرى، بين عشية وضحاها. وفعل أهل المدينة الكرماء كما لم يفعل أحد قط في مواجهة هذه الأحداث. وكانت الكاتدرائية القديمة التي تسمى «إل دومو فيكيو il Duomo vechio» أو «البيت المستدير la Rotonde» بكنيستيها تؤوي نحو ألف جريح. وكان الناس يحضرون إليهم في جماعات، والسيدات من كل الطبقات يحضرن لهم البرتقال، والعصير، والبسكويت، والحلوى والملبسّ. ولم تَعتبر الأرملة المتواضعة أو العجوز المعدمة نفسها معفاة من الحضور بنفسها لتقدم رمز تعاطفها أو هديتها المتواضعة. وتتكرر المشاهد ذاتها في الكاتدرائية الجديدة، وهي كنيسة رائعة من المرمر الأبيض لها قبة ضخمة! اجتمع تحتها مئات الجرحى. كما تكرر المشاهد ذاتها أيضاً في الأربعين مبنى الأخرى من كنائس ومستشفيات تؤوي جميعاً نحو عشرين ألفاً من الجرحى والمرضى.

وبسرعة ارتفع مجلس بلدية برتشيا واستطاع أن يرقى بجدارة إلى نفس مستوى الواجبات غير المألوفة التي فرضتها عليه هذه الظروف الخطيرة. وعُقد مجلس البلدية بصفة دائمة. ووفر لنفسه المساعدة والمشورة من قبل أبرز المواطنين الذين قدموا للمجلس مساعدتهم الفعالة. وشكل مجلس البلدية لجنة مركزية لإدارة المستشفيات بناء على اقتراح الطبيب البارز الدكتور بارتولوميو جوالا Bartolomeo Gualla، الذي تولى رئاسة اللجنة. وضمت اللجنة أيضاً الأطباء كوربولاني Corbolani، وأوريفتيشي Orefici، وبلليني Ballini، وبونيتشيللي Bonicelli، وكاسا Cassa، ومادجي Maggi، وأبيني Abeni الذين عملوا بحماس يثير الإعجاب ليلاً ونهاراً دون كلل. وعينت اللجنة على رأس كل مستشفى مديراً خاصاً، وكبير جراحين يساعده بعض الأطباء وعدد من الممرضين. واستطاعت اللجنة بفتح الأديرة والمدارس والكنائس أن تخلق في ساعات قليلة وبسهولة مستشفيات مزودة بمئات الأسرّة والمطابخ

الفسيحة ومغاسل الثياب والبياضات، كما يوجد بها كل ما يمكن أن يكون نافعاً أو ضرورياً. واتخذت هذه الإجراءات بسرعة وحماسة، حتى أن المرء ليدهش بعد أيام قليلة من حسن الترتيب وانتظام العمل في هذه المستشفيات المرتجلة العديدة. وتصبح الدهشة أمراً طبيعياً إذا علمنا أن سكان برتشيا ويبلغ عددهم أربعين ألفاً قد تضاعفوا بغتة بوصول أكثر من ثلاثين ألف جريح ومريض(١٦). وكيف لا نذكر هنا أن الأطباء وعددهم مائة وأربعون طبيباً كانوا طوال فترة عملهم الشاق والمضني أيضاً يُظهرون طاقة وتفانياً عظيمين لا يشوبهما أي نوع من الحساسية أو الغيرة التي تفسد في لحظة ذلك التآلف الرائع الذي ربط بينهم من أجل الصالح العام. وساعدهم في عملهم عدد من طلبة الطب المتطوعين. وقد تشكلت أيضاً لجان مساعدة، كما عينت لجنة لتلقي التبرعات العينية كالأغطية والمُلاءات، والمؤن من جميع الأنواع. وكانت لجنة أخرى مسؤولة عن إدارة المخازن أو المستودع المركزي(١٧).

وكان الضباط عادة منفصلين عن الجنود في العنابر المتسعة بالمستشفيات، كما لم يختلط النمساويون بالفرنسيين. وتبدو صفوف الأسِرّة متشابهة، ولكن يعلو كلّ رجل رفٌ وُضعت عليه

---

(١٦) إبتداء من ١٥ يونيو حتى ٢١ أغسطس، وطبقاً للإحصاءات الرسمية، بلغ عدد المرضى وحالات الحميات ٦٦٥ ١٩ جندي استقبلتهم مستشفيات برتشيا، من بينهم أكثر من ٠٠٠ ١٩ ينتمون إلى الجيش الفرنسي السرديني. أما النمساويون فقد بلغ عدد المرضى من جانبهم ٠٠٠ ٢٠ على الأقل في مستشفياتهم في فينيتيا Vénétie، بالإضافة إلى أعداد الجرحى الذين عولجوا هناك.

(١٧) شكلت اللجنة الأولى من هذه اللجان من كل من بالافيتشيني Pallavicini، وجليسنتي Glisenti، وأفيرولدي Averoldi، وسيينا Sienna، والمحاميين زوكولي Zuccoli وكونتر Conter والراهب القانوني روسّا Rossa، وتكونت اللجنة الثانية من بازيليتي Basiletti، وكابريولي Caprioli، وروفيتا Rovetta، ودا بونتي Da Ponte.

سترته وقبعته، اللتان تميزان الجيش الذي ينتمي إليه. ويبدأ منع الجمهور من الدخول لأنهم يعيقون الخدمة ويُربكونها. ونجد إلى جوار المقاتلين الذين تبدو على محياهم الشجاعة والجلد مقاتلين آخرين يتذمرون ويتمتمون. وكانت كل الجراح تبدو خطيرة في الأيام الأولى. ولوحظت لدى الجنود الفرنسيين الطباع أو الروح العالية الحية، الصافية، اللينة السهلة، ورغم حزمها وحيويتها نجدها حساسة وغير صبورة، تنفعل لأتفه المنغصات. إنهم قليلو القلق ولا يصيبهم الغم، ويتميزون بعدم الاكتراث الذي يجعلهم يتحملون العمليات الجراحية عن طيب خاطر، بينما يخشى النمساويون كثيراً عمليات البتر إذ أنهم بطبعهم لا يأخذون الأمور ببساطة، كما أنهم مهيؤون بدرجة أكبر للحزن عند شعورهم بالوحدة. وكان الأطباء الإيطاليون بملابسهم السوداء الطويلة يعالجون الفرنسيين بكل عِنَاية ممكنة، غير أن طريقة العلاج التي كان يتّبعها بعضهم كانت تضايق مرضاهم عندما يوصون باتباع نظام خاص للغذاء، وإجراء عمليات الفصد، وتعاطي شراب التمر هندي.

قابلت في تلك العنابر عدداً من جرحى كاستليوني الذين عرفوني. إنهم يعالجون الآن بطريقة أفضل لكن معاناتهم لم تتوقف بعد. فهذا أحد رماة القنابل الأبطال من فرقة الخرس، قاتل بشجاعة، وأقام في كاستليوني حيث قمت بتضميد جراحه للمرة الأولى، فقد أصيب بعيار ناري في ساقه وكان ممداً على حَشيّة من القش. ويعبّر وجهُه عن ألم عميق. كما كانت عيناه غائرتين وملتهبتين، ووجهه الأصفر المزرق ينبئ بإصابته بالحمى الصديدية التي تزيد من خطورة حالته. كانت شفتاه جافتين، وصوته مرتجفاً، وتخلت صلابة الشجاع عن مكانها ليحل محلها شعور غامض بالخوف والقلق والتردد. فهو خائف من اقتراب الأطباء من ساقه المسكين الذي هاجمته الغنغرينا. ومرّ الجرّاح الفرنسي الذي يجري عمليات البتر أمام سريره، وأخذ المريض يد الطبيب وضمها بين يديه اللتين كانتا

ساختين كحديد ملتهب ثم صاح «لا تصنع بي أذىً فإن عذابي فظيع!». ولكن، يجب التصرف ودون تأخير. هناك عشرون جريحاً آخرون يتطلبون إجراء العمليات خلال فترة هذا الصباح، ومائة وخمسون ينتظرون تضميد جروحهم. إذن ليس هناك وقت للشفقة على واحد أو التوقف أمام ترديده. ورد الجراح وهو إنسان طيب ولكنه ثابت وحازم قائلاً: «اترك الأمر كله لنا». ثم رفع الغطاء بسرعة، وقد تضاعف حجم الساق المحطّم، وسال من ثلاثة مواضع فيه صديدٌ كثير ذو رائحة كريهة، كما ظهرت بقعٌ قرمزية تشير إلى أن شريناً رئيسياً قد تمزق، وأن العضو لا يمكن أن يصله غذاء من الجسم، أي أن العلاج مستحيل، والوسيلة الوحيدة إذن ـ إن كان هناك ثمة وسيلة ـ هي البتر عند الثلث الأعلى للفخذ. بتر! إنها كلمة مفزعة لهذا الشاب البائس، الذي لم يبق أمامه سوى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما موت قريب أو حياة تعسة لرجل كسيح. وليس هناك وقت أمامه للتفكير في اتخاذ القرار الأخير. إنه يسأل وجسمه كله يرتعد، «يا إلهي! يا إلهي! ماذا أنتم فاعلون؟» ولم يجبه الجراح، ولكنه نادى قائلاً: «أيها الممرض، احضر، أسرع!». وهنا تنطلق صرخة تمزق أوتار القلب من ذلك الصدر المرتجف. ويمسك الممرض الأرعن الساق العديم الحركة، البالغ الحساسية مع ذلك، وقد أمسك به قريباً جداً من موضع الإصابة، فانغرزت العظام المتهشمة في اللحم فسببت للجندي وجعاً ناغراً، ورأينا ساقه وقد انثنى وأخذت النقالة ترجه حتى غرفة العمليات. يا له من موكب بشع! إنه يبدو وكأنه ضحية تساق إلى الموت. رقد الجريح أخيراً على سرير العمليات الذي تعلوه حشية رقيقة، وبالقرب منه على سرير آخر وضعت الأدوات مغطاة بفوطة. وانهمك الجراح كلية في أداء مهمته لا يسمع ولا يرى. وأمسك طبيبٌ مساعد شاب بذراعي المريض. وبينما كان الممرّض يُمسك بالساق السليم إذ به يجذب المريض بكل ما أوتي من قوة صوب حافة السرير، فصرخ

المريض من الخوف قائلاً: «لا تدعني أسقط!» وضغط بذراعيه بتشنج على الطبيب الشاب، الذي كان مستعداً لمساندته، وكان هو نفسه شاحب اللون من الانفعال، ويكاد يحس بنفس القلق الذي يحس به المريض. خلع الجراح ملابسه، وشمّر أكمامه حتى كتفيه تقريباً وارتدى صدرية بيضاء كبيرة غطته حتى رقبته، ثم ركع بركبته على أرضية الغرفة ممسكاً بالسكين الرهيب في يده. وبعد ذلك لفّ ذراعه حول خصر الجندي، وبحركة واحدة شق الجلد حول الساق بالكامل. وهنا دوّت في المستشفى صرخة حادة. واستطاع الطبيب الشاب الذي كان يقف وجهاً لوجه أمام الرجل المتألم أن يتأمل في قسمات وجهه الممطوطة أدق تفاصيل هذا العذاب الفظيع، فقال بصوت خفيت للجندي الذي شعر بيديه تتخشب على ظهره: «تشجع! فسيتم إنقاذك خلال دقيقتين!» ونهض الجراح، وبدأ في فصل الجلد عن العضلات التي يغطيها، والتي تعرّت نتيجة لذلك. عندئذ قشّر اللحم، ونزع الجلد لمسافة بوصة واحدة، وجعله كأسورة قميص، ومن ثم عاد إلى مهمته الأساسية، وقطع بسكينه بحركة قوية كل العضلات حتى العظام، فتدفق على الفور سيل من الدماء من الشرايين التي تقطعت. وأغرقت الدماء الجرّاح وانسكبت على الأرض. والتزم الجراح الماهر السكونَ دون أي انفعال ودون أن ينطق بكلمة. ولكنه قطع فجأة ذلك السكون الذي يسيطر على الغرفة، وصاح بغضب في الممرض الأرعن وقال له: «يا أحمق، ألا تستطيع أن تضغط على شريان؟». ولم تكن للممرض خبرة كافية، ولم يكن يعرف كيف يوقف النزيف بوضع إبهامه بطريقة سليمة على الأوعية الدموية. وكان المريض يتمتم في فرط ألمه «آه، كفى هذا، دعوني أموت!» وسال العرق البارد على وجهه. ولكن كان لابد من مرور دقيقة أخرى، دقيقة طويلة كالدهر. وكان المساعد، بعطفه المعهود، يعدّ الثواني ويتنقل بنظره بانتظام بين الجراح ووجه المريض محاولاً تمالك

شجاعته. وعندما لاحظ أنه يرتجف خوفاً قال له: «دقيقة واحدة أخرى فقط!». وفي الواقع، جاء دور المنشار، وها نحن نسمع صوت الصُلب وهو ينشر العظام. الحية وينفذ فيها، ويفصل من الجسم ذلك العضو نصف المتعفن. لكن الألم كان أشد مما يمكن أن يحتمله ذلك الجسد الواهن الضعيف، وتوقفت الأنّات لأن المريض قد أصابه الإغماء. وخشي الجرّاح الذي كان يهتدي بصيحات المريض وشكواه أن يكون سكوته هو سكوت الموت، فتطلع إليه بقلق ليتأكد من أنه لم يمت بعد. وأمكن بصعوبة باستخدام الأدوية المنشطة للقلب المتوفرة لهذه الظروف تنشيط عينيه الكليلتين اللتين كانتا تحملقان وهما نصف مغمضتين. ويتضح أخيراً أن الرجل الذي كان يحتضر يعود الآن إلى الحياة. لقد كان محطماً ومهدوداً، ولكنه، على الأقل، قد تخلص من الآلام الشديدة.

ويستعمل مخدر الكلوروفورم أحياناً في المستشفى المجاور. وهنا يمر المريض، وخاصة الفرنسي، بمرحلتين متميزتين فهو يمر بفترة انفعال يصل غالباً إلى حد الهذيان العنيف، ثم بفترة هبوط وانهيار كامل يظل مغموراً فيه في سبات عميق. وهناك بعض الجنود الذين اعتادوا تعاطي المشروبات الكحولية القوية، وهؤلاء لم يستجيبوا للكلوروفورم، وكانوا يتحملون المخدرات القوية لفترة طويلة. إن الحوادث وحالات الوفاة المتسببة عن الكلوروفورم لم تكن من الأشياء النادرة كما هو متوقع. وأصبح من الطبيعي أحياناً أن تحاول دون جدوى إحياء شخص كان يتحدث إليك منذ لحظات.

لنتصور الآن عملية من هذا النوع تجرى لنمساوي لا يعرف الإيطالية أو الفرنسية ترك نفسه ليساق كشاة إلى الذبح دون أن يستطيع أن يبادل جلّاديه الرحماء كلمة واحدة. ويَلقى الفرنسيون الودّ من كل إنسان. فالجميع يلاطفونهم، ويدللونهم، ويشجعونهم. وعندما يجرى الحديث عن معركة سولفرينو ينشطون ويتناقشون،

مهما كانت خطورة إصاباتهم. فهذه الذكريات ـ المجيدة بالنسبة لهم ـ تحمسهم، وتخفف، على ما يبدو، من معاناتهم وذلك بنقل خواطرهم بعيداً عن أنفسهم. غير أن النمساويين لم تكن لهم تلك الميزات. ففي المستشفيات المختلفة التي ألحقوا بها كنت أصرّ دائماً على رؤيتهم، وكنت أكاد أقتحم العنابر في بعض الحالات. وكم كان امتنان هؤلاء الرجال الطيبين لكلمات الود والتبغ القليل الذي قدمته لهم! لقد ارتسمت على وجوههم المستسلمة الهادئة اللطيفة إحساسات لم يمكنهم التعبير عنها فكانت نظراتهم تقول أكثر من أي شكر يُنطق به. وكان الضباط بنوع خاص مقدرين للرعاية التي قدمناها لهم. لقد عومل الضباط والجنود على السواء معاملة إنسانية من جانب سكان برتشيا، ولكن دون إظهار أي روح للود نحوهم. وفي المستشفى تقاسم أمير أيزمبورج مع أمير ألماني آخر حجرة صغيرة مريحة إلى حد ما.

وقمت بتوزيع التبغ والغليون والسيجار لعدة أيام متوالية في الكنائس والمستشفيات، حيث لرائحة التبغ الذي دخنه المئات من الرجال أكبر الأثر في مكافحة الراوئح الكريهة الناتجة عن تكدس أعداد كبيرة من المرضى في أماكن حارة خانقة. ونفد رصيد التبغ الموجود في برتشيا سريعاً، وكان لابد من طلب المزيد من ميلانو. فقد كان التبغ هو الشئ الوحيد الذي يقلل من جزع الجرحى قبل عمليات بتر الأعضاء وأجريت عمليات لكثيرين والغليون في أفواههم، ومات كثيرون وهم يدخنون.

واصطحبني أحد الأهالي النبلاء من برتشيا هو كارلو بورجيتي Carlo Borghetti إلى مستشفيات المدينة بنفسه في عربته، وكان مجاملاً للغاية، وساعدني في توزيع هدايانا من التبغ الذي عبأه التجار في آلاف من قراطيس الورق الصغيرة التي تطوع بعض الجنود بحملها في سلال ضخمة وقفف كبيرة. وقد استقبلوني

بحفاوة في كل مكان. شخص واحد هو الطبيب اللومباردي كونت كاليني Calini لم يسمح بتوزيع السيجار في مستشفى القديس لوقا العسكري الذي كان يديره، وكان ذلك ضربة للمرضى المساكين الذين كانوا يلقون نظرات الولع على سلال التبغ الموضوعة عند الباب، بينما أظهر جميع الأطباء الآخرين عرفانهم هم ومرضاهم إزاء تلك الهدايا، ولم يستوقفني ذلك العائق البسيط. ويجب أن أقول أنه كان العائق الأول الذي صادفته رغم أنه أمر بسيط للغاية. ولم أشعر حتى ذلك الحين في الواقع بأي مضايقة من هذا النوع. والذي يجعلني أكثر دهشة هو أنه لم يُطلب إليّ ولو مرة واحدة أن أبرز جواز سفري، أو حتى رسائل التوصية الحارة التي حَمَّلَني إياها جنرالات[١٨] لضباط عظام آخرين، وكانت تملأ حافظتي. لم أُسلم بالهزيمة أمام الدكتور كاليني. وفي اليوم نفسه، بعد الظهر، نجحت بعد محاولة جديدة بمستشفى القديس لوقا في توزيع كمية كبيرة من التبغ على المعوقين الشجعان الذين جعلتهم، دون قصد مني، يعانون عذاب تانتال[١٩] Tantale، ولم يستطيعوا

---

(١٨) لا سيما من الجنرال المركيز دي بوفور دوتبول de Beaufort d'Hautpoul الذي يتميز بطبعه الودي والطيب بالإضافة إلى إمكانياته العسكرية العبقرية. وكان قائد أركان حرب الفيلق الذي احتل توسكان، ومنذ ذلك الحين أصبح قائداً للحملة السورية. والجنرال دي بوفور هو ابن شقيق الكونت دي بودي de Budé عضو الجمعية العامة لمقاطعة «أين l'Ain» (بجنوب شرقي فرنسا)، الذي توفي أخيراً بجنيف في يوليو/تموز ١٨٦٢، والذي بكاه كل الذين عرفوه، وجعلته طيبة قلبه وصفاته الودية النبيلة عزيزاً على أصدقائه الكثيرين.

(١٩) تانتال ـ ملك أسطوري قدّم لحم ابنه قرباناً للآلهة في إحدى الولائم، فعوقب عقاباً أبدياً بالعطش والجوع. فكان يقف حتى رقبته في ماء يختفي بمجرد محاولته الشرب منه، ويقف تحت شجر محمّل بالفاكهة التي تثير لعابه دائماً وهو في غاية الجوع دون أن يستطيع أن يمد يده إليها. (ملحوظة للمعرّب).

أن يمنعوا أنفسهم عن إطلاق أصوات التعجب المسموعة وتنهدات الارتياح والسرور عندما رأوني عائداً إليهم.

وبينما أنا أتجول نفذت إلى عدة حجرات متتالية تكوّن الطابق الثاني لأحد الأديرة الضخمة، وهو متاهة كبيرة تحولت إلى مستشفى وكان الطابقان الأرضي والأول يغصان بالمرضى. وفي إحدى هذه الغرف العالية وجدت أربعة أو خمسة أشخاص جرحى مصابين بحمى شديدة، وفي غرفة أخرى عشرة أو خمسة عشر جريحاً، وفي الثالثة عشرين. كل واحد منهم ممددٌ في سريره، غير أنهم تُركوا دون رعاية، وكانوا يشكون بمرارة من عدم رؤية أي ممرض منذ ساعات عديدة، وطلبوا مني بإلحاح إحضار قليل من الحساء بدلاً من الماء المثلج الذي لا يُقدَّم لهم سواه. وفي نهاية دهليز لا قرار له، وفي غرفة منعزلة رقد شاب من المشاة الإيطاليين وحيداً بلا حراك يموت ببطء على حشية من القش وقد أصابه التيتانوس. ورغم أنه لا يزال يبدو مليئاً بالحياة، وكانت عيناه مفتوحتين تماماً، إلا أنه لم يكن يسمع أو يفهم بالمرة، لذا فقد تخلّوا عنه. والتمس مني الكثيرون من الجنود الفرنسيين أن أكتب لذويهم، أو إلى قائدهم الذي كان يحل، في نظرهم، محل أسرهم البعيدة. وفي مستشفى سان كليمنت St-Clément رأيت سيدة نبيلة من برتشيا هي الكونتيسة برونا Bronna التي كرست نفسها بإنكار ذات عجيب لمداواة مبتوري الأطراف. وتكلم الجنود الفرنسيون عنها بحماس، ولم تُثبط الأمور البسيطة المنفّرة من عزيمتها. وكانت تقول لي ببساطة جليلة «سونو مادري»، أي «إنني أم». وكانت هذه الكلمة تبين عظمة تضحيتها. إنها أم حقاً.

وفي الشوارع توقفت حتى خمس مرات متتالية إذ اعترضني بعض أهالي برتشيا يلتمسون مني أن أذهب معهم لأعمل كمترجم للضباط الجرحى الفرنسيين، الروّاد، والنقباء، والملازمين، الذين

يرغبون في استضافتهم في منازلهم، والذين يقدمون لهم كافة الإسعافات اللازمة بكل عطف، ولكن دون أن يستطيعوا فهم كلمة واحدة مما يقول ضيفهم الذي لا يتكلم الإيطالية. وكان الضيف كثيراً ما ينفعل ويضطرب ويثور لأنه لا يجد من يفهمه، مما يسبب أسىً شديداً للأسرة بأكملها التي تحيطه برعايتها الودودة، لكنها ترى أن جهودها تُقابل بالجزع والكآبة نتيجة للحمى والألم. وهناك ضابط أراد الطبيب الإيطالي إجراء عملية فَصْدٍ له لإخراج الدم الفاسد، لكنه ظن أنهم يريدون إجراء عملية بتر لأحد أعضائه فأخذ يقاوم بكل قواه، ويسبب لنفسه آلاماً فظيعة من شدة الغيظ. وكان السبيل الوحيد إلى تهدئة هؤلاء الضحايا في سولفرينو عندما تنشأ حالات مؤسفة لسوء الفهم هو تقديم التفسيرات والعبارات المطمئنة التي تقال باللغة الوطنية لهؤلاء الضحايا. بأي رقة وصبر وتفانٍ يؤدي سكان برتشيا دورهم في خدمة هؤلاء الذين كرسوا أنفسهم لأجلهم ولأجل بلدهم لتخليصهم من السيطرة الأجنبية! إنهم يشعرون بكآبة حقيقية عندما يدرك الموت مريضهم. كم هو مؤثر أن نرى تلك الأسر تخطو باندفاع ذاتي وبكل تقوى، بطول الشارع الكبير الذي تحف به أشجار السرو من بوابة سان جون حتى كامبو سانتو Campo Santo، خلف نعش ضابط فرنسي حل عندها ضيفاً لأيام قليلة، ترافقه إلى مثواه الأخير، وتبكيه كما تبكي الصديق أو الوالد أو الابن، رغم أنها ربما لا تعرف اسمه!

ويجري أثناء الليل دفن الجنود الذين يموتون في المستشفيات ويراعى، غالباً، تسجيل بيانات الأسماء أو الأرقام، وهو ما لم يكن يحدث مطلقاً في كاستليوني.

طالبت كافة مدن لومبارديا بنصيبها من الجرحى، واعتبرت ذلك شرفاً لها. وكانت أعمال الغوث منظمة على خير وجه في برجامو وكريمون، كما كانت اللجان المساعدة تتلقى العون من اللجان

النسائية الفرعية التي كانت تقدم الرعاية الممتازة لمجموعات المرضى الموكلين إليها. وقال طبيب في أحد مستشفيات كريمون: «نحن نحتفظ بالأشياء الجيدة لأصدقائنا من جيش الحلفاء، ولكننا نقدم لأعدائنا الشئ الضروري للغاية، فإذا ماتوا فبئس ذلك». وقد أضاف ليبرّر تلك الكلمات الفظة قائلاً إنه علم من بعض الجنود الذين عادوا من فيرونا ومانتوا أن النسماويين تركوا جرحى الجيش الفرنسي والسرديني يموتون دون أي رعاية. لكن إحدى السيدات النبيلات من كريمون وهي الكونتيسة... التي كانت قد كرست نفسها من كل قلبها للمستنفيات، أسرعت باستهجان ذلك مُعلنةً أنها ستقدم الرعاية نفسها للنمساويين والحلفاء على السواء، وأنها لن تفرق بين أصدقاء وأعداء، وأردفت تقول: «إن السيد المسيح لم يميز بين البشر عندما كان الأمر يتعلق بمصلحتهم». وإذا كان أسرى جيش الحلفاء قد عوملوا ببعض الجفاء، لكن هذه التقارير لابد وأن تكون غير صحيحة وفيها مغالاة. وعلى أي حال، فإنه لا يمكن لأي شئ أن يبرر مثل هذه العبارات.

أما فيما يتعلق بالأطباء الفرنسيين فإنهم لا يكتفون بعمل كل ما هو ممكن إنسانياً دون مراعاة لاختلاف الجنسيات فحسب، لكنهم يتألمون ويغتمّون لما لا يستطيعون عمله. ولنستمع في هذا الصدد إلى الدكتور سونريبه Sonrier الذي قال: «إنني لا أستطيع دون أن أحزن للغاية أن أتصور حجرة صغيرة بها خمسة وعشرون سريراً خصصت في كريمون للنمساويين المصابين بإصابات بالغة. إنني أرى تلك الوجوه الهزيلة الشاحبة ماثلة أمامي وقد تجعدت من الإنهاك والتسمم الصديدي، تستعطف بإيماءات وصرخات تمزق القلوب لاستجابة طلبها الأخير أن نبتر لهم عضواً من أعضائهم حاولنا إنقاذه، وكانت النتيجة أنهم ماتوا بعذاب أليم وقفنا أمامه عاجزين!».

إن المفوض العام في برتشيا، والدكتور جوالا مدير عام مستشفيات المدينة، والدكتور كوميسيتي Commisetti كبير أطباء الجيش السردييني، والدكتور كارلو كوتا Carlo Cotta مفتش صحة لومبارديا كانوا يتبارون في التفاني. وتجدر الإشارة إليهم بشرف بعد البارون الشهير لاري الطبيب الذي يشغل منصب كبير مفتشي الجيش الفرنسي. وأظهر الدكتور اسنار Isnard، وهو كبير أطباء من الدرجة الأولى، مهارة جديرة بالملاحظة كطبيب ممارس وكمدير. وقريباً منه، في برتشيا، نرى السيد تييري دي مواجراس Thierry de Maugras وجيشاً كبيراً من الجراحين الفرنسيين الشجعان الذين لا يكلّون، والذين كنا نود ذكر أسمائهم جميعاً. فمن المؤكد أنه إذا كان الذين يقتلون لهم أن يطمعوا في المجد، فالذين يُداوون ويُبرئون مجازفين غالباً بحياتهم يستحقون بالأولى التقدير والعرفان بالجميل. لقد جاء من ستراسبورج Strasbourg خصيصاً جراح أنجلو ـ أمريكي هو الدكتور نورمان بيتون Norman Bettun أستاذ علم التشريح في تورنتو في أعالي كندا من أجل أن يقدم مساعدته لهؤلاء الرجال المخلصين. وأسرع طلبة الطب في بولونيا Bologne وبيزا Pise ومدن إيطالية أخرى إلى الحضور. ونرى إلى جانب سكان برتشيا بعض الفرنسيين العابرين والسويسريين والبلجيكيين الذين رخصت لهم السلطات الإدارية، وحضروا ليقدموا خدماتهم الطوعية، وزاروا المستشفيات، وساعدوا المرضى، وقدموا لهم بعض أسباب الراحة البسيطة كالبرتقال والشراب والقهوة وعصير الليمون والتبغ. واستبدل أحدهم ورقة نقد ألمانية فئة فلورين واحد لأحد الكرواتيين كان يتوسل طوال شهر كامل إلى كل من يراه ليغيّرها له حتى يستطيع استخدام هذا المبلغ الزهيد الذي يمثل كل ثروته. وفي مستشفى سان جايتانو San Gaetano تميز راهب فرنسيسكاني بحماس شديد في عمله من أجل المرضى. وهناك مقاتل شاب من بييمونت أصله من نيس

ويتكلم الفرنسية والإيطالية، وكان قد تماثل للشفاء، كان يتولى ترجمة الشكاوى والطلبات إلى الأطباء اللومبارديين الذين احتفظوا به كمترجم. وفي بياسنزا كان يدير المستشفيات الثلاثة بعض العامّة من الرجال والسيدات الذين يعملون كممرضين وممرضات. وكان من بين الممرضات آنسة شابة توسلت إليها أسرتها كي تمتنع عن قضاء وقتها كله بالمستشفيات خوفاً عليها من الحمى الخبيثة والمعدية التي كانت سائدة هناك، غير أنها استمرت في العمل الذي فرضته على نفسها عن طيب خاطر بكل حماس ورقّة، وكان الجنود يمتدحونها قائلين: «إنها تدخل البهجة إلى المستشفى». آه! كم كان من المفيد لو وجد في هذه المدن اللومبارديّة مائة من الممرضين والممرضات المؤهلين وذوي الخبرة! كان من الممكن أن تكوّن هذه المجموعة نواة تتجمع حولها تلك الجهود المتفرقة والمنتشرة التي تتطلب توجيهاً مستنيراً. وكان من الواضح أنه لا يوجد وقت لدى الذين يعرفون واجبهم لتقديم النصح والتوجيه اللازم، وأن الذين تقدموا بنواياهم الطيبة لأداء العمل كانوا يحتاجون إلى المعرفة والخبرة الضروريتين، لذلك كانت جهودهم قاصرة وقليلة الفعالية في كثير من الأحيان. ماذا تستطيع عمله في الواقع حفنة من الأشخاص المتطوعين المتفرقين والمنعزلين إزاء عمل ضخم ومُلِحّ بهذه الصورة! بعد انقضاء ثمانية أو عشرة أيام فترت همة سكان برتشيا وخَبا حماسهم. لقد تعبوا وأرهقوا باستثناء بعض الأمثلة المشرّفة. وكنا نرى السكان القليلي الخبرة والفطنة وهم يأتون إلى الكنائس والمستشفيات بطعام غير صحي غالباً لتقديمه للجرحى. واضطررنا إلى منعهم من الدخول، فماذا كانت النتيجة؟ وافق كثيرون على الحضور لقضاء ساعة أو ساعتين إلى جانب المرضى، لكنهم عدلوا عن ذلك عندما اقتضى الأمر الحصول على ترخيص أو السعي للحصول عليه. وقابل الأجانب، الذين أبدوا استعدادهم لتقديم الخدمات للإفادة منهم، عوائق غير متوقعة من هذا النوع أو ذاك

كان من شأنها أن تثبط عزيمتهم. لكننا من ناحية أخرى نجد ممرضين متطوعين ومؤهلين تم اختيارهم جيداً، بعثت بهم بعض الجمعيات، وحصلوا على تصديق وترخيص من السلطات، وتغلبوا دون عناء على كل هذه الصعوبات، وفعلوا خيراً أكثر بلا حدود.

وخلال الثمانية أيام الأولى بعد المعركة كان الجرحى يُتركون ليموتوا مُهمَلين دون تلقي أي رعاية، وذلك بعد أن يمر الأطباء أمام أسرّتهم وهم يهزون رأسهم ويقولون لهم بصوت خافت: «ليس هناك ما يمكن عمله بعد الآن». ألم يكن ذلك شيئاً طبيعياً نظراً للعدد القليل من الممرضين إزاء هذه الأعداد الضخمة من الجرحى؟ أليس من المنطق الحتمي، والمؤسف والأليم أيضاً، أن يتركوهم يهلكون دون أن يهتموا بهم، ودون أن يخصصوا لهم وقتاً كافياً كان من الضروري أن يدخروه للجنود الأكثر أملاً في الشفاء؟. وكان هؤلاء الذين حكم عليهم بالموت مقدماً كثيرين للغاية. ولم يكن هؤلاء الذين صدر ضدهم هذا الحكم الصارم بصُمٍّ لا يسمعون. فقد كانوا يدركون بسرعة أنهم قد تُركوا ليموتوا. وكانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة مغمومين، ممزقي القلوب، غير مبكي عليهم دون اهتمام أو رعاية. وكانت نهاية أحدهم أشد مرارة لمجاورته لبعض الشباب الزواويين ذوي الإصابات الخفيفة، الذين كانت تصدر عنهم دعابات عابثة غير لائقة حرمت ذلك المسكين الراحة والهدوء في لحظاته الأخيرة. وهذا محتضر يرقد إلى جوار زميل شقاء آخر مات لتوّه، يشاهد رغماً عنه تلك الجنازة البذيئة التي يصنعونها لجاره فيرى فيها مقدماً ما سيتم معه في القريب العاجل. ويا لتعاسته لو أنه رأى بعض الأشخاص وقد انتهزوا فرصة صراعه مع الموت وخور قواه ليفتشوا في حقيبته ويسلبوا ما يروه فيها مناسباً لهم بالقوة. لقد وصلت إلى هذا المحتضر المهُمَل مع ذلك رسائل من عائلته، وهي بمكتب البريد منذ ثمانية أيام، ولو أنها سُلمّت له لمنحته تعزية فائقة في محنته، لقد ترجّى الحراس مرات

عديدة أن يذهبوا ليحضروها له ليتمكن من قراءتها حتى قبل وفاته بساعة، لكن الحراس المتكاسلين رفضوا طلبه بقسوة متعللين بعدم توافر الوقت لديهم وبوجود عمل آخر منوط بهم.

ليتك هلكت فجأة أيها الشهيد البائس مضروبًا برصاصة على أرض المذبحة وسط تلك الأهوال العظيمة التي يستمونها المجد! ليتك سقطت قريبًا من قائدك وأنت تذود عن راية فرقتك فأصاب اسمك شيئًا من الشهرة، بل ليت أولئك القرويون الذين آلت إليهم مهمة الدفن قد دفنوك حيًا عندما التقطوك فاقد الوعي على جبل السرو أو في سهل ميدولي! لما طال عندئذ عذابك الرهيب على الأقل. لكنك الآن تمر بعذابات متتابعة كتب عليك أن تتحملها. إنك لن تدرك المجد، وإنما يدركك الألم المفرط ويليه الموت البارد والموحش بكل أهواله. وأخيرًا، فلا عجب من أن يلصق باسمك ذلك النعت المقتضب «مفقود» كمرثية وحيدة لك!

إلى أين ذهبت الآن تلك النشوة الباطنية العميقة التي ألهبت ذلك المحارب الباسل بهذا الغموض وهذه الغرابة عند بدء الحملة ومنذ يوم سولفرينو، في تلك اللحظات التي جازف فيها بحياته، وتعطشت فيها شجاعته لدم نظرائه فسارع إلى سفكه بهذه الخفة؟ إلى أين ذلك الولع بالمجد، وأين ذلك المرح الذي يسري، كما كان الحال أثناء المعارك الأولى، بين الصفوف الداخلة إلى مدن لومبارديا الكبرى؟ إلى أين ذلك الولع وقد تضاعف آلاف المرات بالأصداء المجلجلة للموسيقى العسكرية وأصوات الأبواق المدوية، وقد استحثها أزيز الرصاص ودوي القنابل والزئير المعدني للشهب والقذائف المتفجرة والمتحطمة في تلك الساعات التي كانت تغيب

فيها فكرة الموت أمام الحماسة الملتهبة والخطر المستهوي والهياج العنيف الأعمى؟.

لنذهب إلى لومبارديا ففيها سنرى ونعرف الثمن الذي يَشتري به هؤلاء الرجال ما يدعونه بكل عجرفة «المجد» والمقابل الباهظ الذي يكلفه هذا المجد! إن معركة سولفرينو هي الوحيدة في القرن ١٩ التي يمكن مقارنتها مع معارك بورودينو Borodino، وليبزج Leipsick، ووووترلو Waterloo من حيث الخسائر التي سببتها. وفي الواقع، بلغ عدد القتلى والجرحى الذين تخلفوا بعد يوم ٢٤ يونيو ١٨٥٩ في الجيش النمساوي والجيش الفرنسي السرديني كما يلي: ٣ فيلد مارشالات، ٩ جنرالات، ١٥٦٦ ضابطاً من كل الرتب، من بينهم ٦٣٠ نمساوياً، ٩٣٦ من الحلفاء، ونحو ٤٠ ٠٠٠ صف ضابط وجندي[٢٠]. ويجب أن يضاف إلى هذه الأرقام أكثر من ٤٠ ٠٠٠ مقاتل من الجيوش الثلاثة مجتمعة ممن أصيبوا بالحمى وماتوا من المرض أو الإعياء الذي أصابهم يوم ٢٤ يونيو والأيام السابقة له مباشرة أو التي تلت هذا التاريخ، أو نتيجة للتأثير الضار للمناخ الصيفي والحرارة الشديدة في سهول لومبارديا، وأخيراً بسبب الحوادث الناتجة عن إهمال الجنود أنفسهم في بعض الأحيان. وإذا تركنا كافة المسائل الاستراتيجية ومسألة المجد جانباً

(٢٠) نشر في الصحف الفرنسية وغيرها من المنشورات، أنه عند توقيع معاهدة السلام في فيلافرنكا، أعلن فيلد مارشال هيس أن النمساويين فقدوا في معركة سولفرينو ٥٠ ٠٠٠ رجل، وأضاف «أن المدافع المحززة الفرنسية قد مزقت احتياطياتنا» غير أن صحة هذه الكلمات التي رددتها بعض المجلات أمر مشكوك فيه.

فإن معركة سولفرينو هذه تعتبر ـ من وجهة النظر المحايدة النزيهة كارثة أوروبية حقيقية[٢١].

كان نقل الجرحى من برتشيا إلى ميلانو يجري أثناء الليل بسبب حرارة النهار الملتهبة، ويمثل مشهداً مأسوياً مؤثراً بقطاراته المحملة بالجنود المشوهين، والوصول إلى المحطات المزدحمة بالسكان الواجمين المكتئبين الذين أضيئت وجوههم بالأضواء الخافتة لمشاعل الزيت، وذلك الجمهور المتكدس الذي يختلج بالانفعال والعطف، ويبدو وكأنه يريد أن يقطع أنفاسه ليتحسس بسمعه الأنات أو العويل المكتوم الذي يصل إليه من القوافل الرهيبة.

وكان النمساويون يحطمون أثناء انسحابهم التدريجي في شهر يونيو حتى بحيرة جاردا Garde الخط الحديدي الذي يربط ميلانو

(٢١) نستشهد هنا بكلمات بول دي مولين Paul de Molènes الذي شهد معركة سولفرينو باعتباره ضابط ميدان في الجيش الفرنسي، والذي دعاه قلبه النبيل إلى كتابة السطور التالية التي تتفق مع موضوعنا تماماً. «بعد معركة مارينجو (١٨٠٠) التي لم تسبب ذلك القدر الكبير من الضحايا كما فعلت معركة سولفرينو، أحس نابليون الأول بواحد من أقوى المشاعر التي لا تمت بصلة إلى مقتضيات السياسة، والتي ربما كانت على مستوى الأفكار العبقرية، التي تعتبر من أسرار الحياة البطولية، التي ترى النور المفاجئ تحت عيني الله في أعمق المجالات الباطنية للضمير. فقد كتب الامبراطور نابليون إلى إمبراطور النمسا وهو في ميدان المعركة: «من وسط الآلام والأعداد الضخمة للجرحى، الذين يحيط بهم ٠٠٠ ١٥ جثة أناشد جلالتكم الإصغاء إلى صوت الإنسانية» ـ لقد تأثرت تأثراً عميقاً بذلك الخطاب الذي وصلنا كاملاً عن طريق أحد المؤرخين البارزين المعاصرين لنا. وقد تأثر ودهش به كاتبه نفسه. لكن دهشته لم تكن تحمل أي أثر للندم الدفين الذي يمكن الإحساس به عند استيقاظه في الرجال الذين يدينون أنفسهم عندما يتقاعسون عن أداء عمل كريم ترك لهم أن يفعلوه من تلقاء أنفسهم». ويضيف بول دي مولين «إن معركة سولفرينو أطلقت مرة أخرى ينبوع هذه الفكرة التي نزعت من قاهر مارنجو العاصفة الغريبة التي أصابته بالكآبة والأسف».

بالبندقية Venise في مواضع كثيرة بين ميلانو وبرتشيا وبسكييرا. لكن هذا الخط أمكن إصلاحه بسرعة، وفُتح من جديد للمرور[٢٢] لتسهيل نقل المعدات والذخيرة والمؤن المرسلة إلى جيش الحلفاء، وأيضاً للسماح بإخلاء مستشفيات برتشيا.

شيدت في كل محطة أكواخ طويلة ضيقة لاستقبال الجرحى الذين يوضعون في صفوف متتابعة على أسرّة أو حشايا بسيطة عند خروجهم من عربات القطار. ووضعت تحت هذه المظلات نضد محملة بكميات كبيرة من الخبز والحساء والنبيذ، وعلى الأخص الماء، وكذلك الأربطة التي كانت الحاجة تدعو إليها دائماً. وكان المكان يضاء بعدد وافر من المشاعل التي أمسك بها شباب المناطق التي يتوقف فيها الموكب. وأسرع المواطنون اللومبارديون، والممرضون المرتجلون بتقديم ضريبة عرفانهم وتقديرهم للمنتصرين في سولفرينو. إنهم يقومون بتضميد جراح الرجال في هدوء ووقار ديني، وينقلوهم خارج القطار بعناية أبوية، ويضجعونهم بحرص على المتكآت التي أعدت لهم. وقدمت سيدات المنطقة إليهم المشروبات المنعشة أو المأكولات المتنوعة التي كن يقمن بتوزيعها داخل القطار للناقهين الذين يتابعون السفر إلى ميلانو.

وفي ميلانو، حيث يصل الجرحى إلى محطة قطارات خط برتشيا بمعدل ألف شخص كل ليلة[٢٣] لعدة ليال متتالية، كان يجري

(٢٢) أمكن تحقيق هذه النتيجة بفضل نشاط وطاقة رجل المال الإيطالي شارل بروت Charles Brot من ميلانو، وهو العضو الوحيد الذي بقي في ميلانو من مجلس إدارة خطوط السكك الحديدية للومبارديا والبندقية.

(٢٣) في منتصف شهر يونيو ١٨٥٩ (وقبل معركة سولفرينو) كانت مستشفيات ميلانو تضم ٩٠٠٠ مريض أصيبوا في الاشتباكات السابقة. وكان مستشفى ماجيور وهو المستشفى المدني الكبير في ميلانو الذي أسسته في القرن الخامس عشر بلانش فيسكونتي Blanche Visconti زوجة الدوق سفورزا Sforza يضم حوالي ٣٠٠٠ مريض منهم.

استقبال ضحايا سولفرينو بنفس الحماس والمحبة الفياضة التي قوبل بهما ضحايا ماجنتا ومارينيان.

لم تعد الشابات الجميلات النبيلات يتطلعن من الشرفات المزينة بالأعلام في القصور الارستقراطية الفاخرة في ميلانو وينثرن الورود على أكتاف الضباط المتلألئة وعلى الأشرطة والأرواب والصلبان المصنوعة من الذهب والمينا، وقد صِرن أبرع جمالاً بسبب نشوة الحماس المتقد، ولكنهن يذرفن الدموع الحارة تعبيراً عن انفعال محزن وشفقة يتحولان إلى تفانٍ مسيحي صبور ومليء بإنكار الذات.

وجاءت كل أسرة تملك عربة لتأخذ نصيبها من الجرحى من المحطة، ووصل عدد هذه العربات التي أحضرها سكان ميلانو طواعية إلى أكثر من خمسمائة عربة. وكانت عربات الكاليش الفاخرة ذات الأربعة مقاعد، وكذلك عربات النقل الصغيرة ذات العجلتين على السواء ترسل كل ليلة إلى بورتا توزا Porta Tosa حيث محطة ركاب خط البندقية الحديدي. وكانت سيدات إيطاليا النبيلات يُجلسن الضيوف بأنفسهن في العربات ويعتبرن ذلك شرفاً كبيراً لهن، وكن قد زوّدن هذه العربات بالحشايا والأغطية والوسائد. وكان المرضى ينقلون من القطارات إلى تلك العربات الفاخرة. ويتولى نقلهم الرجال اللومبارديون أنفسهم يساعدهم في ذلك خدمهم الذين اشتركوا مع سادتهم في هذا العمل بحماس. وكان الجمهور يهتف عندما يمر أمامه أولئك المتألمون المحظوظون، وكان الناس يرفعون قبعاتهم احتراماً لهم، ويسيرون مواكبين لحركة العربات البطيئة حاملين المشاعل التي تضيء تلك الوجوه الحزينة للجرحى الذين كانوا يحاولون الابتسام، ويرافقونهم حتى مداخل القصور والمنازل المضيفة حيث كانت العناية الدؤوبة والمثابرة في انتظارهم.

وكانت كل أسرة تود أن تؤوي تحت سقفها جرحى فرنسيين، وتحاول أن تعزيهم بكافة السبل عن بعدهم عن الوطن والأهل والأصدقاء. وبذل لهم أفضل الأطباء كل جهد للعناية بهم في البيوت الخاصة[٢٤] كما في المستشفيات. وأظهرت لهم كبار سيدات ميلانو عناية شُجاعة ومستمرة أيضاً. فكن يسهرن إلى جانب وسادة الجندي البسيط والضابط بمثابرة راسخة. إن السيدة أوبولدي دي كابيي Uboldi de Capei، والسيدة بوسيللي Boselli، والسيدة سالا Sala، كونتيسة تافرنا Taverna بالمولد، وكثير من سيدات نبيلات أخريات قد نسين عاداتهن الخاصة بالأناقة والراحة، وقضين شهوراً كاملة إلى جانب أسرّة الألم الخاصة بالمرضى الذين صرن لهم ملائكة حارسة. وقد أظهر كل ذلك المعروف دون أي تفاخر. إن تلك الرعاية المستمرة والمواساة وذلك الاهتمام المستمر من جانب هؤلاء السيدات ليُؤهلهن لامتنان عائلات المرضى الذين قدمت لهم هذه الخدمات، كما يؤهلن للاعجاب والاحترام من الجميع. بعض أولئك السيدات كن أمهات، وكانت ملابس الحداد تكشف عن كصاب أليم حديث.

---

(٢٤) في معظم الحالات كان سكان ميلانو يرسلون الجنود المرضى إلى المستشفيات بعد استضافتهم لبضعة أيام، لأنه كان من المرغوب فيه توفير جهد الأطباء الذين يمرون على المرضى في البيوت الخاصة للحيلولة دون بعثرة المساعدة المقدمة.

أوكل الإشراف العام على مستشفيات ميلانو إلى الدكتور كوفلييه Cuvelier الذي أنجز بكفاءة المهمة الصعبة التي أناطه بها كبير جراحي الجيش الإيطالي، الذي كان يساعده في العمل بعد معركة سولفرينو فارالدو الحاكم العام لمقاطعة برتشيا، الذي استحق عمله الممتاز في هذا الموقف الخطير وطباعه السامية أفضل الثناء.

وعندما ترك الجيش الفرنسي ميلانو في منتصف يونيو قاصداً برتشيا ترك هناك أماكن لأكثر من ثمانية آلاف جريح. ويجدر بالذكر أن التنظيم الممتاز للجيش الفرنسي من الناحية الإنسانية كان يقع على عاتق المارشال راندون Randon وزير الحرب، والمارشال فايان ماجور جنرال جيش إيطاليا، والجنرال مارتمبري مساعده.

لنذكر في هذا الصدد ذلك الاعتراف السامي الذي أعلنته إحداهن للدكتور برتراند هي المركيزة ل... «إن الحرب قد سلبتني أكبر أولادي منذ ثمانية شهور فقط على أثر رصاصة تلقاها وهو يحارب مع جيشكم في سباستوبول. وعندما علمت بوصول جرحى فرنسيين إلى ميلانو، وأنني أستطيع أن أعتني بهم. أيقنت أن الله أرسل لي أعظم تعزية...».

إن السيدة الكونتيسة فيري بورروميو Verri-Borromeo رئيسة اللجنة المركزية الكبرى لأعمال الغوث[٢٥] تشرف بصورة منتظمة

(٢٥) توفيت الكونتيسة جوستين فيري، بورروميه بالمولد، عام ١٨٦٠، وقد خلفت أسىً كبيراً لدى كل من أسعده الحظ بلقائها. وكانت المخازن الضخمة للأربطة والضمادات التي كانت تديرها بمهارة في كونترادا سان باولو Contrada San Paolo، غنية بهذه المستلزمات، وذلك بفضل الرسالات الضخمة التي ترد من مختلف المدن والبلاد. وخاصة من تورينو حيث كانت المركيزة بالافيشينو ـ تريفولزيو Pallavicino-Trivulzio تعمل بكفاءة مماثلة لكفاءة الكونتيسة فيري في ميلانو.

وقد أرسلت جنيف وغيرها من مدن سويسرا وكذلك بعض مدن السافوى la Savoie رسالات ضخمة جداً من الأربطة والضمادات إلى تورينو عن طريق الدكتورأبيا Appia الذي تبنى هذه المبادرة في جنيف. وخصصت مبالغ ضخمة لشراء أنواع مختلفة من وسائل الترفيه البسيطة للجرحى دون مراعاة لاختلاف الجنسيات. واقترحت الكونتيسة دي ج... تشكيل لجنة لهذا الغرض، ولقي اقتراحها استحسانا في باريس ثم في جنيف. ومن هذه الدولة المحايدة التي كانت تشعر بالتعاطف نحو كل من طرفي النزاع كانت تصدر طرود الإغاثة إلى لجان الإغاثة الرسمية في تورينو وميلانو، وذلك لتوزيعها دون تحيز على الجرحى الفرنسيين والألمان والإيطاليين.

وفي تورينو عملت المركيزة بالافيشينو ـ تريفولزيو بكل ود وكرم وتفان كرئيسة للجنة المركزية، وأظهرت نشاطاً كبيراً في حمل هذه المسؤولية الضخمة. وقد تكونت لجان أخرى في تورينو حيث قام سكان المدينة ببذل جهد رائع لخدمة ضحايا الحرب.

على الترتيبات في مستودعات الأربطة والضمادات، ورغم تقدم سنها كانت تجد متسعاً من الوقت لتخصص ساعات طويلة للقراءت للمقاتلين الجرحى يومياً. لقد كانت كل قصور ميلانو تؤوي مرضى. فكان قصر بورروميو يضم ٣٠٠ مريض، وكانت الأخت مارينا فيديماري Marina Videmari رئيسة دير أورسولين Ursulines تدير بمحبة مثالية مستشفى كبيراً يُعد نموذجاً للنظام والنظافة، وكانت تقوم بالخدمة فيه هي وأخواتها الراهبات.

وشيئاً فشيئاً بدأت فصائل صغيرة من الجنود الفرنسيين الذين تماثلوا للشفاء في التحرك صوب تورينو، وقد لفحت شمس إيطاليا وجوههم فأصبحت برونزية اللون. البعض منهم يعلقون ذراعهم على الصدر، والآخرون يتكئون على العكاز، وتظهر عليهم جميعاً آثار جروح خطيرة. وأصبحت بَزّاتهم قديمة ممزقة، ولكنهم يرتدون ملابس داخلية ممتازة منحها لهم الإيطاليون الأغنياء بسخاء بدلاً من قمصانهم المخضبة بالدماء. كان الإيطاليون يقولون لهم: «لقد سالت دماؤكم للدفاع عن بلادنا، ونحن نود الاحتفاظ بها للذكرى». لقد كان هؤلاء الرجال أشداء وأقوياء منذ أسابيع قليلة، غير أنهم اليوم محرومون من ذراع أو ساق، أو رُبطت رؤوسهم الدامية. لقد تحملوا آلامهم باستسلام، لكنهم لم يعودوا بعد قادرين على مواصلة الحرب أو مساعدة أسرهم. لقد وجدوا أنفسهم بمرارة أليمة وقد أصبحوا مخلوقات تثير الشفقة والرأفة، وأضحوا عبئاً على الآخرين وعلى أنفسهم.

ولابد لي من الإشارة إلى المقابلة التي أجريتها في ميلانو عند عودتي من سولفرينو مع رجل مسن وقور هو المركيز دي برياس de Bryas النائب والعمدة السابق لمقاطعة بوردو Bordeaux. وقد كان يملك ثروة طائلة وحضر طواعية إلى إيطاليا وأمامه هدف واحد هو خدمة الجنود الجرحى. لقد غمرتني السعادة وأنا أعمل لتسهيل سفر هذا

النبيل المحب للإنسانية إلى برتشيا: فقد كانت الفوضى مطنبة والزحام شديداً في خلال الخمسة عشر يوماً الأولى من يوليو في محطة بورتا توزا إلى حيث اصطحبته، حتى أننا وصلنا بصعوبة بالغة إلى قطارات السكة الحديد. ورغم تقدمه في السن، ومركزه وشخصيته الرسمية (لأنه كان ـ على ما أظن ـ مكلفاً من قبل السلطات الفرنسية بمهمة إنسانية محضة)، فإنه لم ينجح في إيجاد مكان له في القطار حيث كان يجب أن يركب. وتعطينا هذه الحادثة الصغيرة فكرة عن الحشد الضخم الذي كان يعترض سبيل المحطة ومنافذها.

كم من الأحداث المثيرة التي ظلت غير معروفة! فهذه روح طيبة أظهرها أحد الفرنسيين وكان أصماً تقريباً، وكان قد اجتاز أيضاً مسافة ثلاثمائة فرسخ لتقديم العناية لبني وطنه. وعندما وصل إلى ميلانو وجد أن الجرحى النمساويين قد تُركوا دون رعاية تقريباً فكرس نفسه لهم محاولاً مساعدتهم بكل وسيلة ممكنة ليرد بالخير على الشر الذي عانى منذ خمسة وأربعين عاماً مضت على يدي ضابط نمساوي. فعندما غزت جيوش التحالف المقدس فرنسا كان ذلك الضابط يقيم عند والدي هذا الفرنسي، الذي كان صبيًّا في تلك الفترة، وأصيب بمرض كان يسبب اشمئزازاً لذلك الضابط الأجنبي فأمسك الضابط به وقذفه خارجاً دون أن يجد من يمنعه. وقد سبّب هذا العمل الوحشي صمماً لهذا الصبي المسكين ظل يعاني منه طوال حياته.

وفي أحد مستشفيات ميلانو كان هناك رقيب زواوي من الحرس ذو وجه فخور ينمّ عن القوة. لقد بترت ساقه، وتحمّل هذه العملية القاسية دون أن ينطق ببنت شفة. وفجأة، وبعد ذلك بفترة قصيرة، انتابه حزن عميق في الوقت الذي تحسنت فيه حالته وكان يجتاز فترة النقاهة بصورة مُرضية. وظل هذا الحزن الذي تزايد يوماً بعد

يوم دون تفسير. ودهشت إحدى ملائكة الرحمة من الراهبات للدمع الذي رقرق في عيون ربّما لم تبك قبل الآن. فظلت تلاحقه بأسئلة كثيرة حتى انتهى الأمر باعترافه لهذه الراهبة الطيبة بأنه كان العائل الوحيد لأمه المقعدة الطاعنة في السن، وأنه عندما كان في صحة جيدة كان يرسل لها شهرياً خمسة فرنكات يقتصدها من أجره وهو يرى نفسه الآن عاجزاً عن مساعدتها، ولابد أنها أصبحت في حاجة ماسة إلى النقود منذ أن توقف عن إرسال مساهمته البسيطة المعتادة إليها. وتأثرت الراهبة رحمة به فأعطته قطعة عملة فئة مائة فلس أرسل مكافئها فوراً إلى فرنسا، ولكن الكونتيسة ت.... التي كانت تقوم على رعاية هذا الجندي الشجاع الفاضل أرادت ـ عندما علمت سبب حزنه الغريب ـ أن تعطيه مبلغاً بسيطاً لوالدته ولنفسه، غير أنه رفض وردّ على تلك السيدة شاكراً: «احتفظي بهذه النقود لآخرين ربما يكونون في حاجة لها أشد مني. أما بالنسبة لوالدتي فإني آمل أن أرسل لها معاشها في الشهر القادم لأنني أرجو أن يكون بإمكاني العمل قريباً».

وضعت إحدى السيدات العظيمات في ميلانو ـ وتحمل اسماً تاريخياً ـ أحد قصورها وبه مائة وخمسون سريراً تحت تصرف الجرحى. وكان من بين الجنود المقيمين في ذلك القصر أحد رماة القنابل من الفرقة السبعين وقد أجريت له عملية بتر وكان في خطر الموت. وكانت هذه السيدة تحاول مواساة الجريح فتتحدث معه عن أسرته، فيخبرها بأنه الابن الوحيد لأسرة ريفية في مقاطعة جير Gers، وأن سبب حزنه هو تركه لوالديه في بؤس شديد لأنه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يوفر لهم أسباب العيش. كما قال لها أنه سيشعر بمواساة كبيرة لو أنه استطاع تقبيل والدته قبل أن يموت. وفجأة قررت السيدة ـ دون أن تعلنه بما اعتزمته ـ أن تغادر ميلانو، وأخذت القطار إلى جير بالقرب من موطن الأسرة التي حصلت على عنوانها، واصطحبت أم الجريح القروية معها عائدة

إلى ميلانو، بعد أن تركت ألفي فرنك للوالد المسن المقعد. وبعد ستة أيام من حديث السيدة مع رامي القنابل كان هذا الابن والأم يتعانقان بالبكاء مباركين فضل تلك السيدة.

ولكن لماذا سردنا كل هذا القدر من مشاهد البؤس والألم، التي ربما أثارت انفعالات مكدّرة؟ ولماذا توقفنا بامتثال طويلاً أمام صور تدعو للرثاء، ورويناها بأسلوب يبدو وكأنه يعنى بالجزئيات، ويبعث على القنوط؟

لتسمحوا لي أن أجيب على هذا السؤال الطبيعي بسؤال آخر:

ألا توجد وسيلة لتكوين لجان إغاثة خلال فترة السلام والهدوء تهدف إلى تقديم الرعاية للجرحى في زمن الحرب بواسطة متطوعين متحمسين ومتفانين ومؤهلين جيداً لمثل هذا العمل؟

فما دام العالم يتجاهل آمال وتطلعات جمعية أصدقاء السلام، وأحلام قِسّ كنيسة سان بيير، والتطلعات النبيلة لرجال مثل الكونت دي سيّون de Sellon؛

وما دمنا نردد مع أحد كبار المفكرين قوله: «إن الناس قد وصلوا إلى حد يتقاتلون فيه دون أن يكره بعضهم بعضاً. وإن قمة المجد وغاية الفنون هي الإبادة المتبادلة»؛

وما دمنا قد وصلنا إلى أن نعلن أن: «الحرب هي أمر إلهي» كما يؤكد الكونت جوزيف دي ميستر Joseph de Maistre؛

وما دام العالم يخترع كل يوم وسائل دمار جديدة وفظيعة بمثابرة تليق بهدف أسمى، وما دمنا نشجع مخترعي هذه الآلات القاتلة ونصفق لهم في معظم الدول الأوروبية الكبرى التي يجري بينها سباق التسلح؛

وأخيراً، ما دامت الحالة الذهنية في أوروبا، دون الإشارة إلى أي علامات أخرى، قد بدت تنبئ بحروب حتمية إن عاجلاً أو آجلاً؛

فلماذا لا نستفيد من فرصة السكون وزمن الهدوء النسبي لدراسة ومحاولة حلّ هذه المشكلة ذات الأهمية الكبيرة والعالمية من وجهتي النظر الإنسانية والمسيحية؟

ولو طرح هذا الموضوع ذو الأهمية العامة لتأمّل كل فرد، لاستحث، دون شك، أفكار وكتابات أناس أكبر قدرة وأكثر كفاءة. ولكن، إلى أن يتحقق ذلك، ألا يبدو من الواضح أنه ينبغي للوصول إلى تحقيق هذا الهدف النبيل أن يوجَّه الانتباه إلى هذه الفكرة المطروحة على الفروع المختلفة للأسرة الأوروبية الكبيرة، وأن تحظى هذه الفكرة باهتمام وتعاطف أباة النفوس وذوي القلوب التي ترق لمعاناة نظرائهم؟

إنه متى تكونت لجان من هذا النوع وأصبح لها كيان دائم، تظل ساكنة في زمن السلم، ولكنها تنظم نفسها لتكون مستعدة لمواجهة احتمال الحرب، ولا تقتصر على الاعتماد على مساندة سلطات الدولة التي أنشئت فيها وحسب، ولكنها أيضاً تطالب سلطات الدول المتحاربة بمنحها التصاريح والتسهيلات اللازمة لإنجاز مهمتها بصورة فعالة. ويجب أن يضم مجلس إدارة هذه اللجان في كل دولة أناساً بارزين يتمتعون بالسمعة الطيبة والتقدير. وتتوجه هذه اللجان إلى كل الأفراد الذين يقبلون بدافع خيري مخلص أن يكرسوا أنفسهم بصورة مؤقتة لهذا العمل الخيري الذي يشمل تقديم الغوث والإسعاف في ميدان المعركة ـ بموافقة السلطات الحربية وبمساندتها وتحت توجيهها عند الحاجة ـ وذلك أثناء وقوع الاشتباك ثم رعاية الجرحى في المستشفيات حتى تمام شفائهم. وسيكون إيجاد مثل هذا التكريس التلقائي أسهل مما نتصور. فكم من أناس سيكونون بالتأكيد، منذ الآن، وإذا اقتنعوا وتأكدوا أنهم

يستطيعون أداء عمل نافع ومفيد، بتشجيع السلطات العليا وبتسهيل من جانبها، على استعداد إلى الذهاب، حتى على نفقتهم الخاصة، ليقوموا بعمل خيري عظيم كهذا لفترة مؤقتة. أي سحر ستجده تلك القلوب النبيلة الرحيمة والنفوس الشهمة في هذا العصر الذي يُعرف بعصر الأنانية والبرود في ارتياد ذات المخاطر التي يرتادها المحارب بمحض إرادتها، ولكن في مهمة طوعية للسلام، والمواساة، والتضحية!

وتثبت الأمثلة التي يضربها لنا التاريخ أنه ليس من ضرب الخيال أن نعتمد على مثل هذه التضحيات. ونسوق مثلين أو ثلاثة لذلك. ألا نعلم أن رئيس أساقفة ميلانو سان شارل بوروميه Saint Charles Borromée حضر على عجل من أقصى إيبارشيته إلى مدينة ميلانو أثناء انتشار وباء الطاعون عام ١٥٧٦ ليقدم للجميع المساعدة والتشجيع متحدياً العدوى؟ ألم يحذو حذوه فردريك بوروميه Frédéric Borromée في عام ١٦٢٧؟ ومرة أخرى، ألم يشتهر الأسقف بلزانس دي كاستل مورون Belzunce de Castel-Moron بالتفاني البطولي الذي أظهره أثناء انتشار ذلك الوباء الشرس في مرسيليا عامي ١٧٢٠، ١٧٢١؟ ألم يتجول جون هوارد John Howard في كل أوروبا لزيارة السجون وأماكن الحجر الصحي والمستشفيات للعمل على إجراء إصلاحات صحية في هذه المنشآت؟. لقد مات في عام ١٧٩٠ في خرسون من حمّى انتقلت إليه من مريض بعد إقامته وسط المرضى بالطاعون في القرم. اشتهرت الأخت مارتا من بيزانسون Besançon لأنها قامت في المدة من ١٨١٣ إلى ١٨١٥ بعلاج جرحى جيوش التحالف والجيش الفرنسي. وفي فريبور Fribourg اشتهرت راهبة أخرى هي الأخت بارب شاينر Barbe Schyner عام ١٧٩٠ برعايتها لجرحى القوات التي غزت بلادها والجرحى من بني وطنها.

ولنذكر على وجه الخصوص حالتين من حالات التفاني المعاصرة ترتبطان بحرب الشرق الأدنى، وترتبطان بالأكثر مباشرة بموضوع بَحْثنا. ففي الوقت الذي كانت الراهبات الرحيمات يعتنين بجرحى ومرضى الجيش الفرنسي في القرم، ظهرت أمام الجيوش الروسية والانجليزية فرقتان نبيلتان من الممرضات الكريمات تقودهما سيدتان فاضلتان، إحداهما من الشمال والأخرى من الغرب. وفي الواقع، أنه بعد اندلاع الحرب بقليل أسرعت الدوقة العظيمة هيلين باولوفنا Hélène-Paulowna الروسية، وهي الأميرة شارلوت دي فورتمبورج Charlotte de Wurtemberg بالمولد، أرملة الدوق العظيم ميشيل بمغادرة بطرسبرج Saint-Pétersbourg ومعها ما يقرب من ثلاثمائة سيدة متوجهة إلى مستشفيات القرم للقيام بمهمة التمريض، حيث لقين امتنان الآلاف من الجنود الروس[٢٦]. ومن ناحية أخرى نرى الآنسة فلورانس نايتنجال Florence Nightingale التي زارت مستشفيات انجلترا والمؤسسات والجمعيات الخيرية الرئيسية في القارة، وكرست نفسها لفعل الخير رافضة رفاهية الثروة، وقد تلقت نداء عاجلاً من اللورد سيدني هيربرت Sidney Herbert وزير الحربية في الامبراطورية البريطانية يدعوها فيه إلى الذهاب لمعالجة الجنود الانجليز في الشرق الأدنى. ولم تتردد الآنسة نايتنجال التي حصلت على شعبية كبيرة في الإقدام على هذا العمل النبيل، الذي كانت تعلم أنه يستهوي عاطفتها أيضاً، وسافرت نايتنجال إلى القسطنطينية وسكودار Scutari في نوفمبر ١٨٥٤ ومعها سبع

(٢٦) قام إمبراطور روسيا ألكسندر الثاني Alexandre II بزيارة مستشفيات القرم أثناء حرب الشرق الأدنى في شتاء ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ وقد تأثر هذا العاهل الجبار المعروف بقلبه الطيب وروحه الإنسانية الكريمة تأثراً بالغاً بالمشاهد الرهيبة التي وقع عليها بصره لدرجة أنه قرر فوراً التوصل إلى اتفاق سلام، لأنه لم يتصور إمكانية استمرار هذه المذابح التي تضع أعداداً ضخمة كهذه من رعاياه في هذه الحالة من العذاب.

وثلاثون سيدة إنجليزية قدّمن الرعاية فورَ وصولهن للعديد من جرحى معركة إنكرمان Inkermann. وفي عام ١٨٥٥ انضمت إليها الآنسة ستانلي Stanley ومعها خمسون صديقة جديدة، مما سمح للآنسة نايتنجال بالذهاب إلى بالاكلافا لتفقّد مستشفياتها. إننا ندرك جيداً ما حققه حبها المتدفق للإنسانية المتألمة من خلال تضحياتها السامية الطويلة المدى(٢٧).

ومن بين تلك الأمثلة اللانهائية يوجد كثير من نماذج التفاني الأخرى التي ظل معظمها مجهولاً أو مغموراً، وبعضها عقيماً إلى حد ما، إذ كانت تلك النماذج معزولة ولم يساندها التعاطف الجماعي أو المنظم!

لو كانت هناك جمعية دولية للإغاثة عندها وقعت معركة سولفرينو، ولو كان هناك ممرضون متطوعون في كاستليوني أيام ٢٤، ٢٥، ٢٦ يونيو، أو في برتشيا في نفس الوقت تقريباً، وكذلك في مانتوا أو فيرونا لأمكن تحقيق نفع بلا حدود!

كيف يمكننا أن نتصور أن فوجاً من المتطوعين المؤهلين المتحمسين الشجعان يمكن أن يكون بلا فائدة في ميدان الدمار أثناء تلك الليلة المشؤومة بين الجمعة والسبت، في الوقت الذي كانت تخرج فيه الأنّات والتوسلات المفجعة من صدور آلاف الجرحى الذين كانوا فريسة للأوجاع البالغة ويتحملون عذاب العطش الذي يفوق التعبير.

---

(٢٧) إن صورة الآنسة فلورانس نايتنجال، وهي تسير ليلاً حاملة مصباحاً صغيراً في يدها عبر العنابر الواسعة في المستشفى العسكري، وهي تلاحظ حالة كل مريض لكي توفر له المتطلبات اللازمة له ووسائل الراحة، ستظل مطبوعة إلى الأبد في قلوب الذين رأوها. وستحفظ سجلات التاريخ إلى الأبد تقليد تضحياتها البطولية المقدسة.

ولو كانت هناك أيد رحيمة ترفع في وقت مبكر أمير إيزمبورج ومعه كثير من المحاربين التعساء من على الأرض الرطبة الدامية حيث كان ممدّداً ومغشياً عليه، لما عانى حتى الآن من الجراح التي تفاقمت وزادت خطورتها أثناء الساعات التي قضاها هناك متروكاً بلا إغاثة. ولو لم يكن جواده سبباً في اكتشافه بالصدفة بين الأموات، لقضى نحبه بالتأكيد لعدم غوثه هو وجرحى كثيرين من مخلوقات الله الذين كانت لوفاتهم نفس الأهمية بالنسبة لأسرهم.

أيظن المرء أن أولئك الشابات الجميلات والسيدات الطيبات في كاستيلوني قد أنقذن من الموت بتفانيهن الكثيرين من المقاتلين المُبتّرين المشوهين، أم أنهن قدمن الرعاية لأناس قابلين للشفاء؟ إنهن بالكاد يُحضرن للبعض منهم المهدئات الخفيفة! وكان يجب أن يكون إلى جوار هؤلاء السيدات الضعيفات الجاهلات رجال شجعان ذوو خبرة، قادرون وثابتون تَمّ إعدادهم مقدماً وبعدد كاف للعمل السريع بنظام وتنسيق. عندئذ كان يمكن تجنب معظم تلك الحوادث التي وقعت، وحالات الحمى التي سببت تفاقم جروح كانت قليلة الخطورة في البداية فأصبحت قاتلة.

لو أن المساعدات كانت كافية لتأمين جمع الجرحى في سهول ميدولي وفي قيعان أودية سان مارتينو وفوق منحدرات جبل فونتانا الحادة أو تلال سولفرينو لما ترك في جزع عميق وخوف من النسيان لعدة ساعات في يوم ٢٤ يونيو ذلك الجندي المسكين من فرقة المشاة الإيطاليين، وذلك الرمّاح، وذلك الزواوي الذي حاول أن يرفع نفسه رغم آلامه المبرحة، أو توسّل بلا جدوى لكي يحضروا له نقالة. وأخيراً، لما تعرضنا للاحتمال الرهيب لدفن الأحياء مع الموتى، وهو مجرد احتمال كان وارداً في اليوم التالي للمعركة!

لو كانت لدينا وسائل نقل للجرحى أكثر إتقاناً من تلك الموجودة الآن[٢٨]، لأصبح رامي القنابل جندي الحرس في غنىً عن عملية البتر الفظيعة التي أجريت له في برتشيا وكان إجراؤها ضرورياً بسبب العجز المؤسف في الإسعافات في الطريق من المستشفى النقال في فيلقه إلى كاستليوني. وإذا كان هذا الجندي لم يمت في تلك العملية، كما حدث لجنود كثيرين، فإن ذلك يعود إلى بنيته القوية السليمة.

ألا يثير منظر دخول هؤلاء الشبان المعوقين إلى بيوتهم بحزن دون ذراع أو ساق تبكيتاً وندماً لمجرد أنه لم تبذل محاولة للتنبؤ بالنتائج المشؤومة للجروح التي كان يمكن شفاؤها بإسعافات فعالة ترسل وتقدم في الوقت المناسب؟ وهؤلاء المحتضرون المتروكون في مستشفيات الميدان في كاستليوني أو مستشفيات برتشيا وكثيرون منهم لا يستطيعون التفاهم بلغتهم، هل كانوا سيموتون وهم يلعنون ويجدفون لو وَجَدوا إلى جوارهم من يفهمهم وينصت إليهم ويواسيهم؟[٢٩] هل نتصور أنه رغم حماسة سكان برتشيا وأهالي مدن لومبارديا فقد كانت هناك أعمال ضخمة لابد من القيام بها؟

---

(٢٨) إن تحسين وسائل النقل التي تهدف إلى منع الحوادث المتكررة التي تقع في المسافة بين ميدان المعركة والمستشفيات الميدانية، من شأنه تخفيض عدد عمليات البتر، وهو عمل إنساني في حد ذاته. كما أنه بتقليل عدد حالات البتر تقل نفقات الحكومة التي تخصص لدفع المعاشات للجنود المعوقين. وقد أجرى عدة أطباء مؤخراً بحوثاً خاصة عن موضوع نقل الجرحى. فالدكتور أبيا، على سبيل المثال، قد صمم آلة بسيطة وخفيفة ومرنة تقلل الصدمات وتفيد على وجه الخصوص في حالات الكسور. وقد أعطى الدكتور مارتريه Martrès الحسن الحظ اهتماماً لهذا الموضوع الذي يستحق الدراسة من جانب الجمعيات التي نتمنى تكوينها قريباً.

(٢٩) حدثت حالات مرض الحنين للوطن لدى بعض الجنود أثناء الحرب الإيطالية وكانت هذه الحالات شديدة بحيث أدت أحياناً إلى الوفاة، دون أن يكون الجندي مريضاً بأي مرض أو مصاباً بأي جرح.

إننا لم نسمع عن مثل هذا الاندفاع النبيل وبسط يد الخير بسخاء في أي حرب في أي عصر، ومع ذلك، فإن هذا التفاني العام والواضح لم يكن بأي حال كافياً أو متناسباً مع مقدار البلاء الواجب غوثه. كما أن كل هذا التفاني كان موجهاً لخدمة الجرحى من جيش الحلفاء، ولم يقدم مطلقاً للنمساويين البؤساء. وكان التعبير عن امتنان شعب تخلص من الطغيان كامناً وراء ذلك الهذيان الوقتي بالحماس والود! كان يوجد حقاً في إيطاليا كثير من السيدات اللاتي تمتعن بالشجاعة ولم يكل صبرهن أو مثابرتهن، ولكن وا أسفاه! لم تصمد منهن حتى النهاية إلا القليلات. وتعب السكان، وفرّقت الحمى أناساً كانوا متحمسين في البداية، ولم يحقق الممرضون والخدم ما كان متوقعاً منهم بسبب القلق واليأس.

إن العمل المأجور غير مرغوب فيه لمثل هذا العمل. فغالباً ما يكون الممرضون الأجراء قساة القلوب، أو ينفرهم التقزز أو يصيبهم التعب بالخمول. ومن جهة أخرى، فالعمل الفوري أساسي، فالمساعدة التي تنقذ اليوم مريضاً قد لا تنقذه غداً، وإذا ضاع الوقت تسللت الغنغرينا وقتلت المريض[٣٠]. إذن يلزم أن يكون الممرضون والممرضات متطوعين ومثابرين ومدرّبين وذوي خبرة في هذا المجال. ويجب أن يكون معترفاً بهم من جانب القادة أو الجيوش في ميدان

(٣٠) في بداية الحملة الإيطالية وقبل أن تبدأ أي معارك اقترحت السيدة ن... في جنيف في أحد معارض جنيف، تكوين لجنة لإرسال الغوث للجرحى. وقد وجد الكثيرون ممن تكلمت معهم أن هذا الاقتراح سابق لأوانه. وأنا شخصياً لم أكن أستطيع ألا أتساءل «كيف يمكن أن يفكر المرء في تجهيز أربطة قبل أن يجرح أحد؟». ولكن ما أن بدأت الاشتباكات حتى ظهرت قيمة توفير الأربطة في مستشفيات لومبارديا وفينيتيا ولأنني رأيت بنفسي هذه الأمور التي أرويها الآن، فقد غيرت آرائي وأقدم انطباعاتي عن الموضوع. وإني أرجو من الله أن تلقى هذه الانطباعات والآراء ترحيباً أكبر من ذاك الذي أبديته في عام ١٨٥٩ بالنسبة لاقتراح السيدة ن...!

القتال، وأن تَلْقَى مهمتهم المساندة والتسهيل. إن عدد العاملين في مستشفيات الميدان العسكرية غير كافٍ دائماً، وسيظل كذلك حتى لو تضاعف مرتين أو ثلاثة، وسيقى الحال هكذا. إذن لابد من اللجوء إلى الجماهير. وهذا أمر حتمي، وسيظل حتمياً. فمن خلال تعاون الجماهير يمكن أن نحقق الهدف المنشود. لذلك يجب توجيه نداء إلى الناس في كل البلاد، ومن كل الطبقات، إلى القادرين في هذا العالم، وأيضاً إلى العمال المتواضعين، لأنهم جميعاً يستطيعون، بطريقة أو بأخرى، كلٌ في دائرة اختصاصه ووفقاً لإمكانياته، أن يساهموا بشكل ما في دفع العمل الخيري إلى الأمام. إن نداء كهذا يجب أن يوجه إلى السيدات والرجال على حد سواء، إلى السلطة العالية الجالسة على سلم العرش وإلى الخادمة اليتيمة المتواضعة والمخلصة، أو إلى الأرملة الفقيرة الوحيدة في هذه الدنيا والتي ترغب في تكريس قواها الأخيرة لخدمة إخوتها في الإنسانية. إنه نداء يوجه للجنرال كما يوجه للعريف، إلى فاعل الخير وإلى الكاتب الذي يستطيع من وراء مكتبه أن يناقش ويفسر بعبقريته ومقالاته موضوعاً يهم العالم أجمع، بل ويهم كل شعب وكل دولة بل وكل أسرة ما دام لا يستطيع أحد أن يقول لنفسه عن يقين أنه في مأمن من احتمالات الحرب. وإذا كان بمقدور جنرال نمساوي وجنرال فرنسي أن يجلسا معاً على مائدة ملك بروسيا وأن يتحدثا كصديقين، فما هو المانع في أن يتدارسا ويناقشا معاً موضوعاً جديراً بأن يثير اهتمامهما؟

وفي الظروف الخاصة غير المألوفة كتلك التي جمعت في كولونيا Cologne أو شالون Châlons أمراء فن الحرب الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة، ألا يستحسن أن يستفيد هؤلاء من هذا النوع من المؤتمرات لوضع مبدأ دولي ما، اتفاقي ومقدس، يصبح متى أُقِرّ وصُدِّق عليه أساساً تقوم عليه **جمعيات لإغاثة الجرحى** في مختلف بلدان أوروبا؟ ومن المهم جداً أن يتم الاتفاق وتعتمد الإجراءات

مقدماً. لأنه ما أن يبتدئ القتال حتى يتخذ كل طرف موقفاً معادياً تجاه الآخر، ويعالج الأمور من وجهة النظر الواحدة والضيقة لرعاياه[٣١].

إن الإنسانية والحضارة تتطلبان بإلحاح عملاً كذلك المشار إليه هنا. ويبدو أيضاً أن هناك واجباً ما يتحقق إنجازه بمؤازرة كل إنسان ذي نفوذ، وبالمشاركة الوجدانية لكل ذوي النوايا الطيبة. أي أمير وأي عاهل في العالم ذلك الذي يرفض مساندته لمثل هذه الجمعيات ولا يكون سعيداً بتوفير الضمان الكامل لجنود جيشه أن يعالَجوا فوراً وبصورة ملائمة إذا جُرحوا؟ وأية دولة يمكن أن ترفض حماية الذين يعملون على هذا النحو لحماية حياة المواطنين النافعين لبلدهم. ألا يستحق المقاتل المضروب برصاصة وهو يدافع أو يخدم بلده كل الرعاية من جانب هذا البلد؟ أي ضابط، وأي جنرال يَعتبر جنوده كما قيل «كأولاده» ولا يرغب في تسهيل مهمة هؤلاء الممرضين؟ وأي مُفوض عسكري، وأي رئيس جراحين لا يتقبل بالشكر مساعدة من جانب جماعة من الأشخاص الأذكياء، جاءوا للعمل بمهارة تحت إدارة جيدة وحكيمة[٣٢]. وأخيراً، وحيث أنه لن يمكننا للأسف أن نتفادى الحرب في عصر نسمع فيه كثيراً عن التقدم والحضارة، أليس من المُلح أن نسعى بإصرار وبروح إنسانية ومتحضرة بالمعنى الحقيقي لمنع الأهوال أو على الأقل التقليل منها؟

---

(٣١) ألا تعقد مؤتمرات صغيرة لأغراض عاجلة لدراسة بعض الموضوعات التي لها أهمية أقل من ذلك بكثير، كما توجد جمعيات دولية في مجالات الصناعة، والأعمال الخيرية، والخدمات العامة، ومؤتمرات للعلماء ورجال القانون والزراعيين ولرجال الإحصاء والاقتصاد، إلخ؟

(٣٢) يخشى في حالة الجمعيات التي نحن بصددها حدوث فاقد أو سوء توزيع للميزانيات ومواد الإغاثة المرسلة. ففي حرب القرم، على سبيل المثال، أرسلت من بطرسبرج إلى القرم رسالات ضخمة من الأربطة أعدتها سيدات روسيا، ولكن بالات الأربطة لم تصل إلى المستشفيات التي خصصت لها وإنما أخذت طريقها إلى مصانع الورق التي تصرفت فيها كما لو كانت أحد منتجاتها.

حقاً، إن تطبيق هذا العمل على نطاق واسع يتطلب اعتمادات ضخمة، ولكن ليس المال هو الذي ينقصنا دائماً. فسيبادر كل شخص بتقديم مساهمته أو صدقته المتواضعة استجابة لنداءات اللجان في وقت الحرب. ولن تقف الجماهير مكتوفة الأيدي بلا مبالاة عندما يحارب الأبناء. أليس الدم الذي يسفك في المعارك هو نفسه الذي يجرى في عروق كل الأمة! إذن ليس هناك عائق من هذا النوع يمكن أن يمثل خطراً أو يوقف سير مشروع كهذا. فالصعوبة ليست في ذلك، ولكنها تكمن في الإعداد الجاد لعمل من هذا النوع، وفي تكوين الجمعيات المقترحة ذاته[٣٣].

وإذا كان من شأن وسائل الدمار الجديدة الرهيبة التي تملكها الشعوب حالياً أن تقصرّ من أمد الحرب في المستقبل، فإنه يبدو أن المعارك ستكون بالمقابل أشد فتكاً. وفي هذا العصر الذي تلعب فيه المفاجآت غير المنتظرة دوراً كبيراً، ألا يمكن للحروب أن تباغتنا من هنا أو من هناك على غرّة وبشكل غير متوقع؟ أليست هذه الاعتبارات في حد ذاتها أسباباً أكثر من كافية تجعلنا لا نترك أنفسنا تؤخذ غيلة؟

*

* *

(٣٣) تفضل الجنرال المحترم ديفور Dufour فكتب لي في ١٩ أكتوبر ١٨٦٢ ما يلي: «يجب أن يرى الناس من خلال الأمثلة الحية التي ذكرتها، الثمن الذي يدفع من آلام ودموع لتحقيق المجد في ميدان المعركة. وليس أسهل من أن يرى المرء الجانب البراق فقط للحرب وأن يغلق عينيه عن عواقبها المؤسفة...» وأردف ذلك القائد البارع لقوات الاتحاد السويسري قائلاً: «إنه شئ عظيم أن تلفت النظر إلى هذا الموضوع الإنساني، ويبدو لي أن الصفحات التي كتبتها تحقق هذا الهدف بدقة كاملة. إن الدراسة المتفحصة والعميقة يمكنها أن تجد الحل من خلال التعاون بين الخيّرين في كافة الدول...».

أفكار دونان ــ اختبار الزمن

لم يكتف هنري دونان في كتابه «تذكار سولفرينو» بوصف معركة رهيبة وسرد أحداث الأيام التالية والدور الذي قام به في تلك الأيام؛ ولكنه قدم أيضاً أفكاراً ومقترحات للمستقبل، تستهدف منع تكرار المعاناة التي شهدها في سولفرينو. إن تلك الأفكار والمقترحات الجريئة والمتواضعة في الوقت ذاته والسرعة التي تحققت بها هي التي حولت كتاب دونان إلى ما هو أكبر من مجرد حكاية أخرى عن الحرب، وهي التي تجعل هذا الكتاب اليوم أيضاً جديراً بالقراءة ولا غنى عنه لفهم المنظمة العالمية التي تحمل اسم «الصليب الأحمر والهلال الأحمر».

والاقتراحات التي أعلنها دونان كانت تستهدف أمرين: أن تنشأ في جميع البلدان «جمعيات طوعية للإغاثة» الغرض منها أن تقدم في وقت الحرب العناية للجرحى، من جهة، ومن جهة أخرى أن يصاغ «مبدأ دولي، تعاقدي ومقدس» يكون أساساً وسنداً لجمعيات الإغاثة. فما الذي آلت إليه هذه المقترحات بمرور الزمن منذ ذلك الوقت؟

في عام ١٨٦٣، أي بعد مرور أربع سنوات من معركة سولفرينو وبعد عام واحد من نشر كتاب دونان، قامت لجنة خاصة تتألف من الجنرال ديفور، وغوستاف موانييه، والطبيبين تيودور مونوار ولوي أبيا، وهنري دونان نفسه، بتنظيم مؤتمر في جنيف اشترك فيه ممثلو ١٦ بلداً. وأوصى هذا المؤتمر بإنشاء «جمعيات وطنية للإغاثة» وطلب إلى الحكومات أن تمنح الحماية والمساندة لهذه الجمعيات. وأعرب المؤتمر علاوة على ذلك عن أمله في أن تعلن الدول المحاربة منذ وقت السلم حياد المعازل الصحية والمستشفيات الميدانية أي لا

يجوز مهاجمتها، وأن تمتد هذه الحماية لتشمل الموظفين الصحيين بالجيوش والمساعدين الطوعيين والجرحى أنفسهم، وأن تختار الحكومات علامة مميزة مشتركة للأشخاص والأعيان الذين يمنحون الحماية.

وفي ١٨٦٤، عقد المجلس الاتحادي السويسري «مؤتمراً دبلوماسياً» في جنيف، شارك فيه مندوبون مفوضون من ١٦ بلدا؛ ووضع ذلك المؤتمر «اتفاقية جنيف لتحسين حال العسكريين الجرحى في الجيوش في الميدان» التي وقعت في ٢٢ أغسطس/آب من العام نفسه، وتم التصديق عليها خلال السنوات اللاحقة من قبل جميع الدول تقريباً. وحققت هذه الاتفاقية الآمال التي أعرب عنها مؤتمر عام ١٨٦٣ وثبتت المبدأ الهام ـ الحاسم بالنسبة للعمل في مجموعه ـ الذي ينص على وجوب جمع العسكريين الجرحى والمرضى ومعالجتهم «بدون تمييز على أساس الجنسية». ووقع الاختيار على شارة لضمان الحماية والمساعدة المقررتين، عبارة عن صليب أحمر على أرضية بيضاء وهو معكوس العلم الوطني السويسري تكريماً لسويسرا.

وعلى أساس القرارات التي اتخذها مؤتمر ١٨٦٣ واتفاقية جنيف تطورت شيئاً فشيئاً المنظمة الإنسانية المسماة الصليب والهلال الأحمر الدولي، وكذلك العمل التعاقدي العظيم المعترف به عالمياً والذي يتمثل في اتفاقيات جنيف لحماية ضحايا الحرب. منظمة عالمية من جهة، وعمل تعاقدي من جهة أخرى: إن المساعدة الإنسانية والحماية القانونية تسيران معاً وتكمل إحداهما الأخرى. وهما تشكلان معاً القوة التي تعني في أشد المصائب الحماية والتشجيع والمواساة لآلاف الأشخاص.

كانت «لجنة الخمسة» قد قامت، حتى قبل عقد اتفاقية جنيف، مع الاحتفاظ بطابعها السويسري، بتشكيل «لجنة دولية لإغاثة

العسكريين الجرحى» أخذت فيما بعد اسم «اللجنة الدولية للصليب الأحمر»، عملت على التشجيع على إنشاء جمعيات وطنية للصليب الأحمر، وتسهيل عملها المشترك، والتدخل في وقت الحرب كهيئة محايدة، لضمان - ضحايا الحرب وتقديم العون لهم حيثما تقتضي الحاجة ذلك. إبان الحربين العالميتين، اهتمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بمصير أسرى الحرب، فزار مندوبوها المعسكرات، وأنشأت اللجنة وكالة مركزية للاستعلامات في جنيف تولت نقل ملايين الأخبار بين الأسرى وعائلاتهم. وإبان الحرب العالمية الثانية، وسعت اللجنة نشاط الحماية والمساعدة الذي تقوم به ليشمل الأشخاص المدنيين، ولا سيما المحتجزين المدنيين والسكان المدنيين في المناطق المحتلة. ومنذ الحرب العالمية الأولى، أسهمت اللجنة إلى جانب ذلك في تطوير واستكمال اتفاقيات جنيف. ويرجع الفضل في عمليات مراجعة وتنقيح النصوص والأحكام الجديدة التي تم قبولها في عامي ١٩٢٩ و١٩٤٩، والتي سنتحدث عنها فيما بعد، إلى مبادرات اللجنة الدولية بصورة أساسية.

وسرعان ما أنشئ عدد كبير من الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر بعد عام ١٨٦٤/١٨٦٣، ثم بعد ذلك سار معدل إنشاء جمعيات جديدة مع نشوء المنازعات. ويتجلى نمو الحركة خارج حدود أوروبا في أنه إلى جانب جمعيات «الصليب الأحمر» أنشئت جمعيات «الهلال الأحمر» التي اتخذت الهلال الأحمر شارة لها. واليوم تشكل ١٥١ جمعية وطنية تضم أكثر من ٢٥٠ مليون عضو وموظف جزءاً من الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. ومن ناحية أخرى تضم شبيبة الصليب الأحمر والهلال الأحمر ما يزيد على ٦٠ مليون شاب تتراوح أعمارهم بين ١٠ و١٨ سنة.

وتجاوز نطاق نشاط الجمعيات الوطنية كثيراً إطار المهام التي حددها دونان ومؤتمر ١٨٦٣ . وانطلاقاً من المساعدات الطبية «لخدمة العسكريين الجرحى والمرضى»، تطورت المساعدة التي تقدم لجميع ضحايا الحروب، إذ يستفيد منها الآن الأسرى والمدنيون الجرحى والمرضى، والمحتجزون والمبعدون، والأشخاص المرحلون، والمشردون، وسكان المناطق المحتلة، واللاجئون.

واقتضى تطور العمل الذي أنجزه الصليب الأحمر والهلال الأحمر في أوقات الحرب توسيعاً لمهام وقت السلم: إن الأشخاص الذين قدموا معاونتهم للصليب الأحمر والهلال الأحمر وقاموا بأعمال قيمة في أوقات الكرب، لا يريدون أن يبقوا غير عاملين، وينبغي ألا يكونوا كذلك. بل إن عليهم على العكس من ذلك أن يكون بمقد أن يسهموا في تنفيذ المهام الإنسانية التي تفرض نفسها ك سواء في البلدان الصناعية أو بلدان العالم الثالث. وهكذا ر عمل السلم» الذي تقوم به الجمعيات الوطنية وتطورت تها لمساعدة المرضى والجرحى والمعوقين، وكذلك أعمالها من أجل المسنين والأطفال وضحايا الكوارث التي تقع في البلد نفسه أو في الخارج. وجاء ليضاف إلى هذه المهام الطبية الاجتماعية في وقت السلم، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، نشاط شبيبة الصليب الأحمر والهلال الأحمر، الذي يعد الشباب للمساعدة والخدمة، ويتجه كذلك إلى غرس روح التفاهم والصداقة فيما بين الشباب من جميع الأمم.

ومنذ عام ١٩١٩، اتحدت الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في اتحاد عالمي هو رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر التي أصبحت الآن تعرف باسم الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر). وعلى خلاف اللجنة الدولية للصليب الأحمر (التي لا تضم عضويتها سوى مواطنين

سويسريين ـ ضماناً للاستقلال والحياد وعدم التحيز)، يشكل الاتحاد محفلاً يلتقي فيه ممثلو الجمعيات الوطنية من جميع البلدان على قدم المساواة من أجل تقاسم خبراتهم وتبادل العون. وتتمثل المهام الأساسية للاتحاد في تشجيع تنمية الجمعيات الوطنية العديدة الحديثة التكوين وحفز وتنسيق أنشطة كافة الجمعيات الوطنية، ولا سيما أعمال الإغاثة في حالات الكوارث الطبيعية.

وفي عام ١٩٢٨، اتحدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر مع الاتحاد الدولي والجمعيات الوطنية في تنظيم «قمّي» يحمل اسم «الصليب الأحمر الدولي» وقد أصبح يسمى الآن «الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر». ويحدد النظام الأساسي لهذا التنظيم اختصاصات اللجنة الدولية والاتحاد الدولي وعلاقاتهما المتبادلة: وهو ينص على تنظيم «مؤتمر دولي» يحضره ممثلو الجمعيات الوطنية المعترف بها، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، والاتحاد الدولي، والدول المنضمة إلى اتفاقيات جنيف، ويكفل المؤتمر الدولي وحدة جهود جميع أجهزة الحركة.

وكما تغيرت هذه المؤسسات بمرور السنين وفقاً للاحتياجات الجديدة، فإن اتفاقية جنيف لعام ١٨٦٤ تكيفت هي الأخرى للظروف وجرى استكمالها بصكوك جديدة. فها هو مؤتمر لاهاي الأول للسلام (١٨٩٩) يعتمد اتفاقية جديدة بعنوان «تكييف مبادئ اتفاقية جنيف لعام ١٨٦٤ للحرب البحرية». وروجعت اتفاقية ١٨٦٤ في عام ١٩٠٦ وأشير فيها للمرة الأولى إلى جمعيات الإغاثة الطوعية. واعتمد مؤتمر لاهاي الثاني للسلام (١٩٠٧) «لائحة قوانين وأعراف الحرب البرية»؛ وقد حظر هذا الصك استعمال وسائل الحرب التي تسبب آلاماً شديدة وغير مجدية، ويفرض معاملة أسرى الحرب بطريقة إنسانية، ومراعاة حقوق أساسية معينة لسكان الأقاليم المحتلة. وفي عام ١٩٢٩،

اجتمع مؤتمر دبلوماسي بدعوة من المجلس الاتحادي السويسري لمراجعة اتفاقية جنيف لعام ١٩٠٦، واعتمد «اتفاقية جنيف المتعلقة بمعاملة أسرى الحرب»، التي أكملت وحددت الالتزامات التي تضمنتها «لائحة لاهاي بشأن الحرب البرية»، آخذة في الاعتبار خبرات الحرب العالمية الأولى. وأخيراً، ففي عام ١٩٤٩، عقد مؤتمر دبلوماسي آخر، اجتمع أيضاً بدعوة من الحكومة السويسرية، واضطلع بمراجعة معمقة لصكوك جنيف السارية وأضاف إليها صكاً آخر هو «الاتفاقية المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب». وتتناول هذه الاتفاقية، التي تتصل أيضاً بلائحة لاهاي للحرب البرية، مجالات جديدة: فنجد أحكاماً تتعلق بحماية المستشفيات المدنية ووسائط النقل الطبي المدنية، وإنشاء مناطق صحية ومناطق مأمونة، والمركز القانوني للأجانب في أراضي أطراف النزاع، ومعاملة المحتجزين المدنيين وسكان المناطق المحتلة. وهناك عامل مهم آخر هو أن اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ يجب أن تطبقها الدول الأطراف في جميع حالات النزاع المسلح، سواء كانت حالة الحرب قد أعلنت أو لم يعترف بها أحد الأطراف. ومن ناحية أخرى، يتعين مراعاة بعض الالتزامات الأساسية في حالات النزاع المسلح الذي ليست له صبغة دولية (حرب أهلية) ويجرى في أراضي أحد الأطراف المتعاقدة. وفي نهاية ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٣، كانت ١٨٥ دولة، من بينها جميع الدول الكبرى، قد أصبحت أطرافاً في الاتفاقيات الأربع. واستكملت هذه الاتفاقيات في عام ١٩٧٧، في ختام مؤتمر دبلوماسي لتأكيد وتطوير القانون الدولي الإنساني المنطبق في المنازعات المسلحة ـ اجتمع في أربع دورات ابتداء من عام ١٩٧٤ في جنيف بناء على دعوة من المجلس الاتحادي السويسري ـ باعتماد بروتوكولين إضافيين، يتناول الأول المنازعات المسلحة الدولية، والثاني المنازعات المسلحة غير الدولية.

وإلى جانب أحكام حماية ومساعدة الجرحى والمرضى والأسرى يتضمن البروتوكولان ـ اللذان يتكونان من ١٣٠ مادة ـ قواعد تتعلق بإدارة الحرب، وتتوخى بالدرجة الأولى تجنب الآلام غير المجدية وتعزيز حماية السكان المدنيين من آثار الحرب. وفتح البروتوكولان الإضافيان أمام الدول الأطراف في اتفاقيات جنيف في شهر ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٧ للتوقيع والتصديق أو الانضمام. وفي نهاية ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٣، كانت ١٣٠ دولة قد أصبحت أطرافاً في البروتوكول الأول، و١٢٠ أطرافاً في البروتوكول الثاني.

وفي السنوات القادمة ستواجه الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، واللجنة الدولية، والاتحاد مهام كبرى ومشكلات صعبة. والشرط الأساسي الذي سيسمح بحلها هو أن تهتدي هذه المؤسسات بروح اتفاقيات جنيف ومبادئ الصليب الأحمر والهلال الأحمر: بروح الإنسانية غير المشروطة والعون النزيه غير المتحيز. وسيكون من الضروري مراعاة مبدأ الحياد الذي يحظر على الحركة أن تتدخل في الأعمال العدائية والخلافات السياسية والمذهبية. إن الإنسانية، وعدم التحيز، والحياد هي الضمان الذي يكفل وحدة وعالمية الحركة التي لن تجد القوة لأداء رسالتها الإنسانية ما لم تظل منظمة متحدة عالمية النطاق.

هانز هوغ
الرئيس السابق للصليب الأحمر السويسري

اتفاقيـــة
لتحسين حال جرحى الجيوش العسكريين في الميدان

إن الاتحاد السويسري؛ وصاحب السمو الملكي غراندوق بادن؛ وصاحب الجلالة ملك بلجيكا؛ وصاحب الجلالة ملك الدانمرك؛ وصاحبة الجلالة ملكة أسبانيا؛ وصاحب الجلالة امبراطور فرنسا؛ وصاحب السمو الملكي غراندوق هيس؛ وصاحب الجلالة ملك إيطاليا؛ وصاحب الجلالة ملك هولندا؛ وصاحب الجلالة ملك البرتغال والجرف، وصاحب الجلالة ملك بروسيا؛ وصاحب الجلالة ملك ورتمبرغ، رغبة منهم في التخفيف، بقدر ما يتوقف ذلك عليهم، من الآلام المترافقة مع الحرب، وإزالة شدائدها غير المجدية وتحسين حالة الجنود الجرحى في ميادين المعارك، قرروا عقد اتفاقية لهذا الغرض وفوضوا نيابة عنهم:

الاتحاد السويسري: السيد غيوم ـ هنري ديفور، السيد غوستاف موانييه، السيد صمويل ليمان.

صاحب السمو الملكي غراندوق بادن: السيد روبرت فولتز، السيد أدولف شتيز.

صاحب الجلالة ملك بلجيكا: السيد أوغست فيشرز.

صاحب الجلالة ملك الدانمرك: السيد شارل ـ إميل فنغر.

صاحبة الجلالة ملكة أسبانيا: السيد دون خوزيه هرييرتو غارسيا دي كوفيدو.

صاحب الجلالة امبراطور فرنسا: السيد جورج ـ شارل جاغرشميت، السيد مارتان ـ فرانسوا بوديه.

صاحب السمو الملكي غراندوق هيس: السيد شارل ـ أوغست برودروك.

صاحب الجلالة ملك إيطاليا: السيد جين كابيللو.

صاحب الجلالة ملك هولندا: السيد برنارد ـ أورتينوس ـ تيودور ـ هنري وستنبيرغ.

صاحب الجلالة ملك البرتغال والجرف: السيد خوزيه ـ أنطونيو مركيز.

صاحب الجلالة ملك بروسيا: السيد شارل ـ ألبرت دي كامبتز، السيد غودفروا فردريك ـ فرانسوا لوفلير، والسيد جورج ـ هيرمان ـ جول ريتر.

صاحب الجلالة ملك ورتمبرغ: السيد كريستوف ـ أولريك هان.

الذين اتفقوا على المواد التالية، بعد تبادل وثائق اعتمادهم ووجدوها صحيحة على النحو الواجب:

المـــادة ١

يعترف بحياد مركبات الإسعاف والمستشفيات العسكرية، وتمنح، بصفتها هذه، الحماية والاحترام من قبل المحاربين ما دامت تؤوي جرحى ومرضى. ويبطل حياد هذه المركبات أو المستشفيات إذا استبقتها قوة عسكرية.

المـــادة ٢

يستفيد موظفو المستشفيات ومركبات الإسعاف، بمن فيهم موظفو الإدارة والخدمات الطبية والإدارية وخدمات نقل الجرحى وكذلك

وعاظ الجيش، من هذا الحياد ما داموا في عملهم، وما دام هناك أي جرحى يلزم جمعهم أو إغاثتهم.

المـــادة ٣

يجوز للأشخاص المبينين في المادة السابقة أن يواصلوا، حتى بعد الاحتلال من قبل العدو، القيام بمهامهم في المستشفى أو مركبة الإسعاف التي يعملون فيها، أو أن ينسحبوا للانضمام إلى الوحدات التي يتبعونها.

وعندما يتوقفون في هذه الحالات عن أداء وظائفهم، يتعين على قوات الاحتلال أن تسلمهم إلى مخافر العدو الأمامية.

المـــادة ٤

مهمات المستشفيات العسكرية تظل خاضعة لقوانين الحرب، ومن ثم لا يجوز للأشخاص الملحقين بهذه المستشفيات أن يحملوا عند انسحابهم سوى الأشياء التي يمتلكونها بصفة شخصية.

وعلى عكس ذلك، فإن مركبات الإسعاف تحتفظ بلوازمها في هذه الظروف نفسها.

المـــادة ٥

سكان البلد الذين يقدمون المساعدة للجرحى يجب احترامهم ويظلون أحراراً. وعلى قادة الدول المحاربة أن يخطروا السكان بالنداء الموجه إلى إنسانيتهم، وبالحياد الذي يترتب على ذلك.

ووجود أي مقاتل جريح يتلقى المأوى والرعاية في أي منزل يكفل حماية المنزل. ويعفى الساكن الذي يؤوي جرحى لديه من إسكان جنود عنده، كما يعفى من جزء من ضرائب الحرب التي قد تفرض.

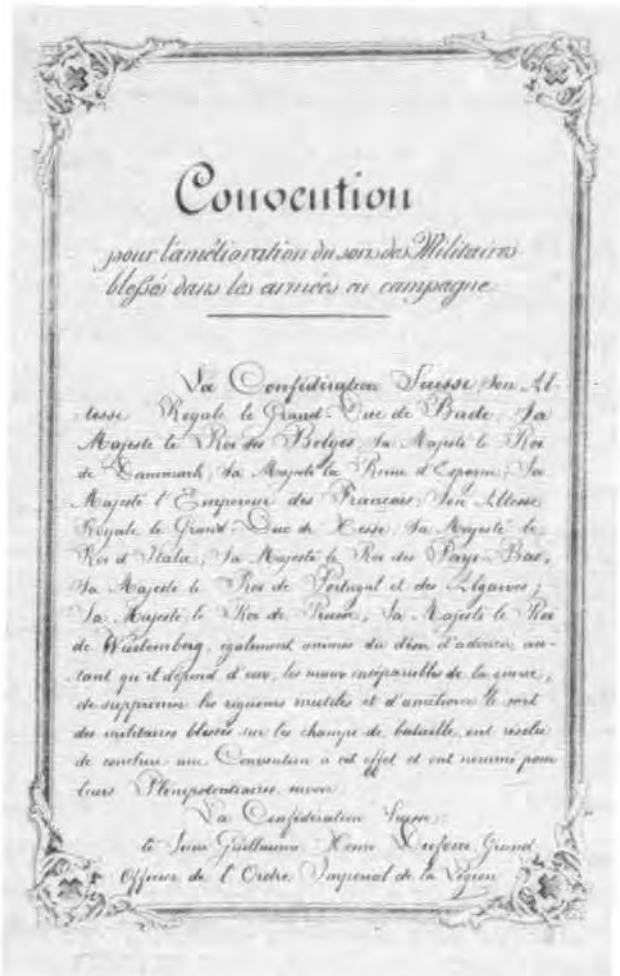

Convention

pour l'amélioration du sort des Militaires blessés dans les armées en campagne

تتكون اتفاقية ١٨٦٤ مما لا يزيد على ١٠ مواد تتناول حماية الجنود الجرحى والأشخاص الذين يتولون الاعتناء بهم. واليوم توجد أربع اتفاقيات تضم أكثر من ٤٠٠ مادة لا لحماية الجنود الجرحى والمرضى وحسب، ولكن أيضا الأسرى والمدنيين الواقعين في قبضة العدو.

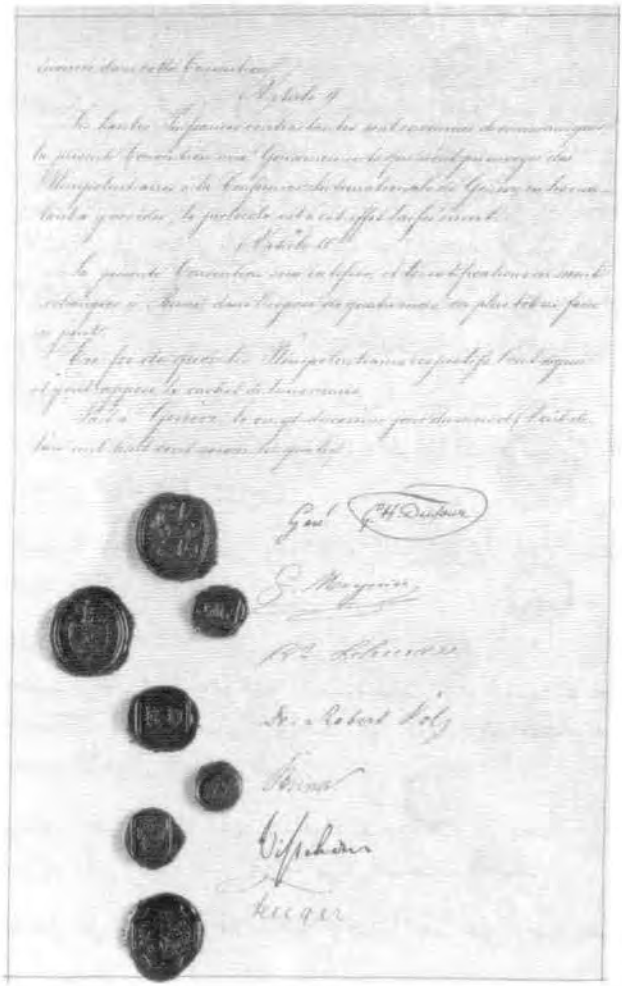

وضعت اثنتا عشرة دولة أختامها على اتفاقية جنيف الأولى. واليوم انضمت ١٥١ دولة ـ من بينها الدول الكبرى ـ إلى اتفاقيات عام ١٩٤٩ الأربع.

المـــادة ٦

العسكريون الجرحى والمرضى يجمعون وتقدم لهم الرعاية، أياً كانت الأمة التي ينتمون إليها.

ويجوز للقادة أن يسلموا العسكريين الأعداء الذين جرحوا أثناء الاشتباك إلى مخافر العدو الأمامية فوراً، عندما تسمح الظروف بذلك ورهناً بموافقة الطرفين.

والمصابون الذين يعتبرون غير لائقين للخدمة بعد شفائهم، يعادون إلى وطنهم.

ويجوز إعادة المصابين الآخرين بالمثل، شريطة ألا يعودوا إلى حمل السلاح طوال مدة الحرب.

عمليات إجلاء المصابين والموظفون الذين يقومون بها، يشملهم حياد مطلق.

المـــادة ٧

تعتمد راية مميزة وموحدة للمستشفيات ومركبات الإسعاف وعمليات إجلاء المصابين. ويجب أن تكون الراية مصحوبة في جميع الأحوال بالعلم الوطني.

ويجوز أيضاً للأفراد الذين يتمتعون بصفة الحياد أن يحملوا علامة ذراع، لكن إعطاء هذه العلامة يترك للسلطات العسكرية.

يحمل كل من الراية وعلامة الذراع صليباً أحمر على أرضية بيضاء.

المـــادة ٨

يتولى القادة العامون للجيوش المحاربة تنظيم تفاصيل تنفيذ هذه الاتفاقية، تبعاً لتعليمات حكومة كل منهم، ووفقاً للمبادئ العامة المعلنة في هذه الاتفاقية.

المـــادة ٩

اتفقت الأطراف السامية المتعاقدة على نقل هذه الاتفاقية إلى الحكومات التي لم تتمكن من إيفاد مفوضين إلى مؤتمر جنيف الدولي، مع دعوتها إلى الانضمام إليها. ولهذا الغرض، ترك البروتوكول مفتوحاً.

المـــادة ١٠

يصدق على هذه الوثيقة ويتم تبادل وثائق التصديق في برن، خلال أربعة شهور، أو قبل ذلك إن أمكن.

إثباتاً لذلك، قام المفوضون بالتوقيع أدناه ووضعوا ختم جيش كل منهم.

حرر في جنيف، في هذا اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس/آب سنة ألف وثمانمائة وأربعة وستين.

المهمة

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة غير متحيزة، ومحايدة، و مستقلة، تؤدى مهمة إنسانية بحتة تتمثل فى حماية أرواح و كرامة ضحايا الحرب و العنف الداخلى ، و تقديم المساعدة لهم. توجّه اللجنة الدولية وتنسق أنشطة الإغاثة الدولية التى تنفذها الحركة الدولية فى حالات النزاع. و تسعى جاهدة أيضاً إلى تفادى المعاناة بترويج وتقوية القانون الدولى الإنسانى والمبادئ الإنسانية العالمية . أنشئت اللجنة الدولية عام 1863، وقد نبعت عنها الحركة الدولية للصليب الأحمر و الهلال الأحمر.

HENRY DUNANT

UN SOUVENIR DE SOLFERINO

ICRC

من يستطيع أن يهز القارئ بشكل أفضل من هنري دونان بهذا الوصف المؤثر لآلام الجنود الجرحى الذين تركوا بالآلاف بلا رعاية بعد معركة سولفرينو. نجح دونان في هذا الكتاب في اتخاذ الخطوة الحاسمة بين رؤية الدمار والنداء الذي يهز أوتار القلوب باسم ضحايا المعركة.

إن الأهوال التي شهدها في ٢٤ يونيه/ حزيران ١٨٥٩ في سولفرينو، هي منشأ الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، التي أصبحت تتضمن في نهاية عام ١٩٩٣، ١٥١ جمعية وطنية تضم ما يزيد على ٢٥٠ مليون عضو منتشرين في جميع أنحاء العالم. وأجهزتها الدولية التي تتمثل في اللجنة الدولية للصليب الأحمر والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر.

إن هذا الكتاب مؤثر حقا!